

A
964.092
K454y

أعلام العرب

٧٨

عبد الكريم الخطابي

دكتور
مهناح يحيى

المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر
دار الكاتب العربي للطباعة والنشر
فرع مصر - ١٩٦٨

مقدمة

عجز الكتاب والمؤرخون العرب ، رغم نشاطهم ، حتى الآن عن كتابة تاريخ حياة هذا العلم العربي ، وهو الأمير عبد الكريم الخطابي .

ولقد كتب فيه وفي حياته ونشاطه وكفاحه عدد من المقالات التي ظهرت في بعض المجلات العربية من وقت لآخر ، إلا أنها لم تتمكن من إعطاء صورة واضحة ومتكاملة عن حياة هذا البطل ، الذي أثر في حياة المغرب العربي وفي تاريخ حركة تحريره من الاستعمار ، أكبر تأثير .

كما تناولت بعض المقالات الأوربية جوانب من حياة هذه الشخصية ، وانقسمت على نفسها ، ونتيجة لاتجاهاتها ، بين محبذ مقرر ومشجع ، وبين حائق مهاجم مuttur .

والواقع أن حياة الأمير عبد الكريم الخطابي تعتبر سجلا خافلا بجلال الأعمال ، وتشتمل على جوانب متعددة ، امتاز بها هذا القائد في ميادين الحرب والسياسة ، والادارة والتنظيم ، هذا علاوة على أنه كان رجل مبادئ واضحة

ومتحررة ، وحمل شعار الحق بالنسبة للأفراد والجماعات والأمم ، وكل ذلك في اطار واضح من الانسانية العميقة ، وحسن التقدير للرجال وللمواقف .

وينظر البعض الى الأمير عبد الكريم الخطابي على أساس أنه - مجرد - ذلك القائد الذي قاد عمليات تحرير منطقة الريف عسكريا ضد قوات الاحتلال الأسبانية فحسب ، وينظر آخرون اليه على أنه - مجرد - صاحب المبادئ الجمهورية ، وإعادة تنظيم المنطقة الشمالية من المغرب تنظيما سياسيا واداريا بشكل حديث ؛ وهناك غيرهم من الذين ينظرون اليه على أساس كونه زعيما لحركة تحررية وطنية ، قادها في اقليم معين من اقاليم الوطن العربي الكبير ، وكذلك الحال بالنسبة لمن ينظر اليه على أنه رجل مبادئ لم تتغير منذ عمليات كفاحه في العشرينات برغم نفيه عن بلاده أكثر من عشرين سنة .. والواقع أن الأمير عبد الكريم الخطابي هو كل ذلك ، بل وأكثر من ذلك بكثير ، وعلينا أن نعترف بأن التاريخ المعاصر لم يتوصل حتى الآن الى شرف معرفة حقيقة هذا القائد البطل الأمير .. وعلينا أن نسأل رجاله في الريف ، ونسأل زعماء المغرب والجزائر وتونس ، ورجالات مصر الذين عملوا معه في الفترة الأخيرة ، وفي فترة اقامته في أرض الكنانة لكي نعرف جوانب متعددة من حياته ، ونسجل صورا رائعة لمواقف هذا البطل في شبابه وفي فترة نضجه، وحتى في أيام شيخوخته .

واني لا أتطاول على ادعاء كتابة حياة هذا البطل بصورة كاملة ، بل اعتبر أنها محاولة مبدئية تسعى الى جمع خطوط عامة عن حياته ، وتفتح الأبواب أمام الباحثين والمنقبين لمواصلة البحث والاستقصاء في هذا الميدان ، حتى نتمكن من اعطاء هذه الشخصية بعض ما تستحق من عناية ورعاية واهتمام .. وما زال هناك الكثير لكي يكشف حول هذه الشخصية ، وتقع مسئولية معرفته وجمعه وتسجيله على كل من المؤرخين والصحفيين ، وأيضا على ذلك العدد من الزعماء والقادة الذين عرفوه عن قرب ، وما زال التاريخ في أشد الحاجة الى رواياتهم ، والى مذكراتهم الخاصة .

وأرجو أن أكون قد وفقت فيما أقصد اليه من محاولة مبدئية ، وعلى الله قصد السبيل .

الاسكندرية في

٢٣ يوليو سنة ١٩٦٦ .

دكتور

جلال يحيى

الفصل الاول

بلاد الريف معقل الأبطال

بلاد الريف هي ذلك الاقليم الشمالى من المغرب الأقصى الذى يمتد من حدود الجزائر فى الشرق حتى مضيق جبل طارق وطنجة فى الغرب ، وله واجهة على المحيط الأطلسى ، تمتد حتى ميناء العرائش التى تقع عند مصب نهر اللوكوس .

وببلاد الريف بلاد جبلية ، وتحمل الاسم الذى تحمله سلاسل الجبال الشاهقة ، والتى تمتد فيها من الشرق الى الغرب ، ويصل ارتفاع قممها فى بعض المناطق الى ثلاثة آلاف متر ، ولهذه الجبال سفوح تواجه الشمال ، وتنحدر صوب البحر المتوسط ، وان كان هذا الانحدار يأخذ شكلا صعبا ، ومفاجئا فى معظم الأماكن ، ولا ينزل صوب البحر بتدرج سهل بسيط الا فى بضعة أماكن فقط على طول هذه السلسلة الجبلية الطويلة ، ولذلك فان عدد هذه الموانى الموجودة على سواحل الريف هو عدد بسيط ، ونذكر من هذه الموانى على التوالى ، ومن الشرق الى الغرب ، كل من مليلة والحسيمة ثم تطوان ، وان كانت ميناء داخليا ، وأخيرا سبتة التى تقع على المدخل الشرقى لمضيق جبل طارق ، ولها أهمية استراتيجية فائقة .

والواقع أن قلة عدد الموانى فى الساحل الشمالى للمغرب قد أعطى لهذه الموانى أهمية كبيرة ، خاصة وأن هذا الساحل يواجه الساحل الأسبانى ، ويمكنه أن يتحكم بقواعده فى الملاحه فى مضيق جبل طارق .. ونذكر جميعا تلك الأهمية الخاصة التى امتاز بها

مثلث سبتة - طنجة - جبل طارق ، في أثناء الحرب العالمية الثانية ، وخاصة بالنسبة لعمليات الملاحة والتموين بين البحر المتوسط والمحيط الأطلسي .

وليست هذه الأهمية الحالية بأقل من أهمية هذه المواقع الاستراتيجية في أثناء السنوات الأولى من القرن العشرين ، أو حتى أهميتها بالنسبة للملاحة في خلال عصر النهضة ، وفترة فجر التاريخ الحديث .

ولا يمكننا أن نتجاهل تأثير التضاريس الجغرافية الموجودة في الاقليم على علاقة أبناء الريف بجيرانهم في الجنوب ، واخوانهم في الشرق ، وكذلك علاقاتهم بجيرانهم في الشمال ، وفيما وراء مياه البحر المتوسط ، وهم سكان شبه جزيرة ايبيريا وبخاصة الأسبان . . . وإذا كان هناك بعض الطرق الجبلية المرتفعة التي تسير الى جوار قمم جبال الريف الشاهقة لكي توصل أبناء الريف ببقية سكان المغرب الأقصى ، فمما لا شك فيه أن الوضع الطبيعي لطرق المواصلات مع هذه السلسلة الجبلية الشاهقة ، هو أن تسير بين الشرق والغرب ، وتوصل بالتالي رجال الريف بسكان المنطقة الشمالية في الجزائر ، وبسهولة أكبر من تلك التي توصلهم بها بسكان المغرب الأقصى . . . ونلاحظ الآن - وبرغم اختلاف الأوضاع السياسية والإدارية من عصر لعصر - نزول عدد من رجال الريف الى المنطقة الشمالية من الجزائر ، طلبا للعمل ، حتى وإن كان هذا العمل موسميا . . . ويساعد فقر اقليم الريف ، وقلة المساحات الصالحة للزراعة فيه على هذه الهجرة الموسمية التي ترجع بدون أدنى شك الى عصور سابقة وقديمة . . . والمهم هو أن طرق المواصلات الممكنة قد أثرت في علاقة رجال الريف بجيرانهم ، وأن الترابط الحضاري الموجود بين رجال الريف ورجال الجزائر يزيد في شدة أواصره عن ذلك الترابط الموجود بينهم وبين بقية أبناء المغرب الأقصى .

ومما لا شك فيه أن طبيعة هذه البلاد قد تحكمت كذلك ، وفي كل عصور التاريخ ، في الطريقة التي تمكنت بها الآراء والحضارات من أن تتوغل في هذا الاقليم . . . وإذا كانت الفارات الرومانية قد تمكنت من التوغل عبر اسبانيا في منطقة طنجة ، فانها قد عجزت عن التوغل الفعلي والتأثير في اقليم الريف . . . أما دخول الاسلام فانه قد أتى عن طريق الجزائر ، وفي خطوط موازية للساحل ، وأثر في هذا الاقليم أكبر تأثير .

ولقد كان من الصعب على الأجانب ، وعلى سكان السهول أن يتوغلوا في الجبال ، ويسيروا في دروبها ومسالكها ، ويتحكموا في أهلها ، وهم كالنسور على قمم هذه الجبال . . . ولكن الأمر كان سهلا بالنسبة لأهل الريف حينما يقررون النزول من جبالهم الشاهقة الى السهول القريبة منهم . . . وهكذا نجد أن طبيعة الأرض نفسها قد أثرت على تحركات جيرانهم ، واخوانهم في المناطق القريبة منهم ، واحتفظت للريف ، ولرجال الريف بصفات معينة ، وميزتهم بها عن جيرانهم .

ولا شك أن الاسلام كثورة تحررية كبرى ، قد وجد استجابة عظيمة عند أبناء الريف ، وانهم قد وجدوا فيه ، وبصفته دين الفطرة ، ودين الحق والقوة ، معبرا عنهم ، وعن شعورهم وأخلاقهم ، وكانت الغالبية العظمى من قوات المسلمين التي فتحت الأندلس للاسلام هم من رجال الريف . . . وجاء تطور الأحداث بعد ذلك ، وعلاقة هؤلاء المغاربة بالأندلسيين ، وبالاسبانيين ، لكي تدعم من أركان الفكرة الاسلامية في هذا الاقليم ، وبشكل يجعلهم لا يعرفون لأنفسهم شخصية أخرى غير الاسلام .

وكان امتداد الاسلام الى الأندلس تجربة قل أن يجود التاريخ بمثلها ، وإن كانت هذه العملية قد تمت بدماء كثير من أبناء الريف ومجهوداتهم . . . ولقد كسبوا بلادا جديدة للاسلام ، وأثروا فيها ،

وفي تاريخها ، وفي تاريخ العالم ، وان كانت نفس هذه التجربة قد أثرت فيهم ، وإلى حد بعيد .

واذا ما سائرنا ابن خلدون في فلسفته للتاريخ ، وفي تاريخ العرب والبربر ، ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر ، لوجدنا أن البداوة قد تحولت مع الزمن إلى نوع من الاستقرار ، ثم تطورت بعد ذلك إلى شكل من أشكال الرفاهية والحضارة الرقيقة . . . جاءوا من جبال المغرب فاتحين بلاد الله لدين الله ووجدوا بين يوم وليلة أن عليهم كسب شعوب إلى دين الله الحنيف ، وإدارة بلاد ، وتسلم جزية وخراج . . . جاءوا رجالا ، واضطروا إلى البقاء ، وإلى التزاوج ، وانجاب أجيال جديدة تزيد من عدد المسلمين ، ومن عدتهم في أيام السلم وأيام الحرب . . . لقد انضم جزء كبير من هؤلاء الرجال المفاويز في الأندلس ، في نفس الوقت الذي قاموا فيه بهضمه ؛ ونشأ عن ذلك مجتمع جديد ، عربى اسلامى أندلسى ، يحمل عناصر القوة ، وعناصر الحمية ، ويعيش في بلاد خصبة غنية ، وتحت ظلال وارفة من الحدائق والمنتزهات . لقد وصلوا في هجماتهم العنيفة إلى تور ، وكادوا أن يدخلوا باريس ؛ وسارت مجموعات أخرى منهم صوب الأقليم الجنوبى لنهر الرون . وإذا كانت القوة العسكرية للمجموعة الأولى قد اضطرت إلى التقهقر أمام قوات شارل مارتل ، فإن المجموعات الثانية قد أقامت في الأقليم الجنوبى لنهر الرون ما يقرب من ثلاثمائة سنة ، وأثرت في هذه الأقاليم أكبر تأثير ؛ ولا تزال الصفات والأخلاق العربية والريفية موجودة في هذه المناطق ، إذ أن الدماء العربية والمغربية قد دخلت إليها .

وليس هناك من مؤرخ يمكنه حتى الآن أن يتجاهل أهمية الدور الذى قام به أبناء المغرب في نشر الحضارة والثقافة العربية في كل الأقاليم المجاورة لهم . ولكن تطور البداوة إلى الحضارة والاستقرار ، ثم تطورها بعد ذلك إلى الرفاهية ، أدى بالتالى إلى

نوع من الضعف العسكرية والإدارى ، ثم أدى بعد ذلك إلى نوع من الانفصال بين هذه العناصر التى جاءت من أقاليمها مجاهدة مكافحة ، وبين بقية أهلها التى ظلت في معاقلها في أعلى الجبال . . . وجاء الانقسام الداخلى والتفكك ، ومعها تعدد القيادات ، وكثرة الأمراء ، عوامل تحسب على العرب والمسلمين ، خاصة في وقت زادت فيه النعرة القومية في بعض الأقاليم الأيبيرية الجبلية ، وحاولت فيه قيادات مسيحية أن تكسب ما فقدته منذ قرون . . . واحتاج أمراء الأندلس في ذلك الوقت ، وهم مجاهدو ومكافحو الاسلام بالأمس ، إلى موجات جديدة تأتي من الشمال الإفريقى ، لكى تغذيهم بالدماء وبالحماس وبالحمية ، وبالقوة اللازمة للجهاد . . . وزاد ذلك من عدد الطوائف في الوقت الذى احتاج فيه المجاهدون إلى وحدة الصف ، خاصة وأن المعركة كانت واحدة .

وكما شاهدت هذه الأقاليم أيام عز الاسلام ومجده ، شاهدت أيام ضعفه وانقسامه وتقهقره . . . وبعد قرون من العز والمجد كتب على أبناء أبطال ومجاهدى المغرب أن يتقهقروا ، وخاصة بعد أن تطوروا ، يتقهقروا من جديد صوب الأقاليم الشمالية من المغرب .

وان قصة ضياع غرناطة وسقوطها في أيدي جنود الملكة ايزابيلا - في عام ١٤٩٢ - لتعتبر فاصلا هاما في تاريخ كل من المغرب والأندلس . . . ولقد حدث ذلك في نفس السنة التى وصل فيها كريستوف كولبس إلى العالم الجديد ، وانفتحت بذلك آفاق جديدة أمام الاسبانين لتكوين دولة قوية ، تعتمد على استعمار العالم الجديد ، في الوقت الذى أصبح فيه على الأندلسيين أن يتقهقروا ويعودوا إلى موطن آبائهم وأجدادهم ، وإلى بلاد الاسلام في المغرب العربى . . . وإذا كانت اسبانيا قد تمكنت في السنوات الأخيرة من القرن الخامس عشر . والسنوات الأولى من القرن السادس عشر . من تجميع ثروة كبيرة ، نتيجة لتوسعها الاستعماري في العالم الجديد ، فإن البرتغاليين قد تمكنوا

بدورهم ، وفي نفس هذه الفترة ، من الالتفاف حول رأس الرجاء الصالح ، ومن الوصول الى مياه الهند والى جزر التوابل في الشرق الأقصى ، وحرّموا بذلك العرب من مورد كان يعد من بين أهم موارد رزقهم وكسبهم .. وسارت الأمور بعد ذلك على أساس قلة الامكانيات الموجودة في أيدي العرب ، وتزايد هذه الامكانيات في أيدي المستعمرين الغربيين .

ولكن عملية خروج الأندلسيين من بلادهم وديارهم لم تكن مجرد عملية حربية تهدف استعادة الاسبانيين لأرض كانت قد أصبحت موطنًا للإسلام منذ خمسة قرون ؛ بل لقد تعدتها الى حرب اقتصادية . وأعطت نفسها صفة حرب صليبية ، وحاولت أن تزيد من حماس الاسبانيين والبرتغاليين ، باعطائها هذا اللون الديني الذي وصل الى حد من التعصب لم يشهد تاريخ الإنسانية مثله من قبل .. فلقد عمل الاسبانيون على اجبار الأندلسيين على الاختيار بين السيف وبين الدين المسيحي ، وكم من شهيد فقدته الاسلام في هذه البلاد أبى الا أن يموت على دين الله الحنيف .. ومع هذه الموجة من التعصب المسيحي خرجت الآلاف من الأهالي ، مع نسايتهم وأطفالها ، هربا من الموت ، صوب السواحل الشمالية للبلاد المغربية .. ولكن سفن المسيحيين كانت تتعقبهم لكي تنكل بهم ، وتفرقهم في سفنهم قبل أن يصلوا الى ديار الاسلام .. وكانت المعارك والمذابح ، وكانت حربا واضحة ، أخذت لون الصراع بين المسيحية والاسلام .

ولقد تمكن عدد من هؤلاء المهاجرين المسلمين ، وهم أحفاد أبطال المغرب المغاوير ، من الوصول في ذلك الوقت ، مع نسايتهم وأطفالهم ، الى أقرب الموانئ المغربية اليهم .. وصلوا الى طنجة ، والى سبتة ، والى تطوان ، والى الحسيمة ، والى الناظور ، والسعيدية ، وكذلك الى وهران ومستغانم ، وحتى الى مدينة طرابلس الغرب .. وكانوا أساسا لنشأة طبقة ثرية في هذه الموانئ،

يقل حماسها للحرب عن قيمتها من الناحية المالية والتجارية .. وكانت عملية وصولهم في نفس الوقت مخاطرة كبيرة ، وخاصة أمام تعقب السفن المسيحية لهم في عرض البحر .. وأدى ذلك الى انتشار روح الحماس والجهاد من جديد بين رجال شمال افريقية، وخروجهم على سفنهم في ذلك الوقت لاستقبال سفن المهاجرين الوافدين ، ولدفع الأذى عنهم ، ولرد العدوان عن بلاد الاسلام .. وكم من معركة وقعت في ذلك الوقت بين سفن المغاربة وبين سفن المسيحيين ، وهي الفترة التي يسميها الغرب بأنها فترة القرصنة، والتي شارك فيها أبناء شمال افريقية ، وعلى أنها حركة الجهاد البحري الاسلامي .

ولم تقتصر مشروعات الاسبانيين والبرتغاليين على اجبار الأندلسيين على التحول الى المسيحية ، ولا على محاولة السيطرة على الموارد التجارية التي كانت في أيدي العرب والمسلمين ، بل لقد تعدتها الى أكثر من ذلك ، وحاولت أن تعمل على احتلال النقاط والمراكز الساحلية المغربية ، سواء الواقعة منها على سواحل البحر المتوسط ، او التي تقع منها على سواحل المحيط الأطلسي .. وشارك في هذه العملية كل من الاسبانيين والبرتغاليين .. وامتد النشاط الاسباني على طول سواحل البحر المتوسط ، ومن طنجة الى سبتة ثم الى مليلة ، والى وهران ، ووصلوا حتى الى تونس وطرابلس الغرب ، وذلك في الوقت الذي امتد فيه نشاط البرتغاليين الى السواحل المغربية المطلة على المحيط الأطلسي ، خاصة وأنها كانت تقع على طريق ملاحظتهم جنوبا مع السواحل الغربية لافريقية، وعلى طريق رأس الرجاء الصالح ، المؤدية الى مياه الهند .. ويهمن أن نذكر هنا أن النفوذ الاسباني ، مع كل ما وصل اليه من قوة وجبروت في ذلك الوقت ، ومن وصوله حتى العالم الجديد ، قد فشل في أن يستولى على الميناء الطبيعي لاقليم الريف ، وهو

ميناء الحسيمة ، والذي يقع بين سبتة ومليلة ، والذي ظل بسفنه
ورجاله ، يعتبر شوكة تقلق مضاجع الاسبانيين .

ولقد ظل ميناء الحسيمة قاعدة بحرية اسلامية هامة ، تخرج
منها سفن المجاهدين لاستقبال ولحراسة سفن المهاجرين
الأندلسيين .. وظل هذا الميناء قاعدة بحرية هامة تدفع العدوان
المسيحي الاسباني عن بلاد المغرب كلها .. واشتهر فيه من رجال
البحر المجاهدين « الرئيس يحيى » الذي وصلت سفنه الى السيطرة
على الملاحة في الحوض الغربي للبحر المتوسط ، والذي عرف عند
الغربيين بأنه « سيد المضيق » .

ولقد عمل الرئيس يحيى من الحسيمة ، وسجل اسمه في
التاريخ .. ويهمننا هنا أن نذكر أن الحسيمة لا تبعد الا بثمانية
كيلومترات عن أجدير ، عاصمة الأمير عبد الكريم الخطابي ..
ولا شك أن رجال الرئيس يحيى ، سيد المضيق ، هم أجداد أولئك
الأبطال الذين جاهدوا فيما بعد بقيادة الأمير عبد الكريم الخطابي ..
وعلى الطريق المؤدى من شفشاون الى ميناء الحسيمة يمكن
للزائر أن يشاهد وعورة الاقليم ، بطرقه العالية التي تسير على
ارتفاع شاهق بين غابات الصنوبر والأرز .. وفي وسعه كذلك
أن يرى الأهالي يسرون على جانب هذا الطريق ، وقد اعتادوا على
السير ، ويلفون سيقانهم وأرجلهم في ضمادات من الأقمشة ،
ويتسلقون الجبال وينزلونها بمنتهى السهولة ، سواء كانوا من
الرجال أو النساء أو الأطفال .. انهم في معاقلمهم على قمم الجبال
كالنسور ، يعرفون طرقها ودروبها ، يعيشون في حرية ، تكون
جزءا من حياتهم ، وصفة أساسية في أخلاقهم ، ولا يفهمون معنى
للحياة الا مع الحرية ، ومع العزة والكرامة ، برغم أنهم يكدحون
يومهم لكي يكسبوا بعرق جبينهم .. ومع الحرية يعتز أبناء الريف

بالمساواة ، ولا يقدمون عليهم الا من يكبرهم سنا ، ويعجبون
بشجاعته وبحكمته .. وعلى الطريق الذي يستمر في الهبوط ،
يصل السائح الى قرية صغيرة تسمى أجدير ، ومن مشارفها يمكنه
أن يشاهد بسهولة خليج الحسيمة وميناءها ، في أسفل الطريق ،
وهو ميناء طبيعي ، يصعب على أجنبي أن يبقى فيه ، ما دامت
قمم الجبال في أيدي الأحرار .

الفصل الثاني

الريف والأطماع الاستعمارية

إذا كانت تضاريس الأرض قد أعطت لاقليم الريف مناعة ونوعا من العزلة ، فإن ذلك لم يمنع رجال الريف من الاتصال باخوانهم وجيرانهم في الجزائر في الشرق ، وفي بقية أقاليم المغرب الأقصى ، الواقعة الى الجنوب من اقليمهم . وكانوا قبل ذلك يكونون جزءا لا يتجزأ من تلك الخلافة الاسلامية الغربية ، خلافة الأندلس ، قبل ان تتفكك هذه الامبراطورية العتيقة ويجبر الزمن رجالها على الانسحاب الى ما وراء البحر المتوسط ، ولقد ظلت هذه الصلات الأخوية أو الانسانية تربط رجال الريف باخوانهم وجيرانهم ، برغم انه يصعب علينا التحدث عن خضوعهم ، وخضوع اقليمهم للسلطات ، وللوحدات الادارية الجديدة التي ظهرت بعد خروج الأندلسيين من ديارهم الى اقاليم المغرب الكبير ، خاصة وأن بلاد المغرب قد انقسمت في هذه الفترة على نفسها ، وظهر فيها كثير من الوحدات الادارية ، أخذت شكلا اقليميا نتيجة للتفكك ، ولتقهقر الأوضاع في هذه المنطقة ، ويصعب علينا أن نقول ان الريف قد أصبح جزءا من سلطنة المغرب الأقصى ، أو أنه قد أصبح منضمّا لسلطات الجزائر ، إذ أن المغرب نفسه كان يشتمل على أكثر من سلطان ، في فاس وفي مراكش وفي اقليم السوس ، وحتى فيما وراء جبال الأطلس . أما الجزائر فقد ظهرت فيها وحدات متعددة ، في تلمسان وفي قسنطينة .. وإذا كان الاشراف السعديون قد تمكنوا بعد ذلك من توحيد أقاليم المغرب الأقصى ، فانهم قد فشلوا من الناحية العملية في فرض سلطتهم المباشرة على اقليم الريف

الجبلي ، الوعر المسالك .. وحينما انهارت سلطة السعديين ، وبدأت طلائع أسرة العلويين ، قاد السلاطين الأول لهذه الدولة الجديدة حملات متعددة الى بلاد الريف ، ولكنهم عجزوا كذلك عن اخضاع هذا الاقليم اخضاعا تاما كاملا .

ولقد تمكنت الدول الأوربية في ذلك الوقت ، وخاصة إسبانيا والبرتغال من احتلال طنجة وسبتة ومليلة وحجر بادس ، وكلها تقع على سواحل الريف ، ومرت مدينة طنجة وسبتة فيما بعد من البرتغال الى انجلترا ، كبائنة في عملية زواج أحد الأمراء باحدى الأميرات . وجاءت فرنسا بدورها تسعى لدى سلطان المغرب ، لكي تحصل منه على قواعد استراتيجية وبحرية قرب السواحل الشمالية للمغرب .. وكانت أعين فرنسا قد بدأت في ذلك الوقت في التوجه صوب الحسيمة وصوب جزر ظفارين .. ولكن هذه المساعي فشلت نتيجة لعدم رغبة السلاطين في اعطاء امتيازات أجنبية في البلاد ، ولخوفهم من اتخاذ هذه القواعد مراكز لتهديب الأسلحة والذخائر صوب الداخل ، وما قد يترتب على ذلك من مشكلات وثورات ، وخاصة في أقاليم لم يكن خضوعها للسلطان الا مؤقتا ، وكان السلطان يقضى معظم أوقاته فيها متنقلا مع حملة كبيرة من الجنود من اقليم لاقليم ، لتدعيم أركان حكمه ، وللتمكن من جمع الضرائب . كان خضوع أبناء الريف اذن للسلطان السعدي أو العلوي هو خضوع اسمى أكثر من كونه فعليا .. وكان رباط الدين والاسلام ، والدعاء لله يوم الجمعة بنصرة السلطان وجيوش المسلمين هي التي توحد وتؤلف بين قلوب أبناء الريف وقلوب أخوانهم أكثر من أي سلطة ادارية أو عسكرية .. وظل أبناء الريف ينزلون من جبالهم ويسيرون شرقا لكي يصلوا الى مشارف فاس ، ويعاونون على العمل فيها .

ولكن علينا أن نذكر أن استمرار اشتراك أبناء الريف في عملية الجهاز البحري جعلتهم يتعاونون في هذا الميدان كثيرا مع

رؤساء البحر الجزائريين ، سواء أكان ذلك في عهد خير الدين بربروسا أم في عهد خلفائه .. وكانوا كرجال بحر يتصلون بذلك الطريق البحري المؤدى الى الحج ، والذي يسير مع سواحل افريقية الشمالية صوب مصر والمشرق العربى والحجاز .. وكان هذا العامل يقرب بين رجال الريف ورجال الجزائر ورجال المشرق العربى ، وبشكل لا يساعد على ترحيب سلاطين المغرب الأقصى بوجود مثل هذه العلاقة ، خاصة وأنهم كانوا في منافسة واضحة مع أمراء البحر الجزائريين . ووصلت هذه العلاقة الى عداء غير مستتر بعد انضمام أمراء البحر الجزائريين الى الممالك العثمانية واتحادهم معها ، وبشكل أدى الى وصل السلطات العثمانية الى حدود المغرب الشرقية .

وتظهر لنا علاقة عداء واضحة بين هاتين القوتين الوطنيتين المتنافستين في الركن الشمالى الغربى لافريقية في أثناء القرن السادس عشر ، وهما القوة البرية التى نمت داخل اقليم المغرب الأقصى عند فاس ومراكش ، والقوة البحرية التى كانت تعمل من الموانى ، سواء من الجزائر أو من اقليم الريف ، وفى اتحاد وتكامل مع القوة العثمانية فى شرقى البحر المتوسط . ولقد أدت هذه العلاقة الى محاولات قام بها بعض سلاطين المغرب لفرض سيطرتهم التامة على اقليم الريف ، بل ذهبوا الى أبعد من ذلك ، وحاولوا غزو الجزائر ، مبتدئين فى ذلك بمدينة تلمسان .. وقامت محاولات أخرى من جانب الجزائريين ، هدفت الوصول الى السيطرة على اقليم المغرب الأقصى وضمه الى بقية الممالك الاسلامية العثمانية .. ولكن هذا الصراع الاقليمى انتهى بعقد اتفاق لتحديد الحدود بين الأقاليم العثمانية ، وبلاد العلويين ، وبشكل ترك تلمسان داخل حدود الجزائر ، وترك وحدة لرجال المغرب الأقصى .

وفى أثناء كفاح السلطنة المغربية ضد القوى الاستعمارية

لتحرير سواحلها من الاحتلال الأجنبى كانت أنظار المغرب تتجه الى السواحل المطلة على المحيط الاطلسى أكثر من اتجاهها الى السواحل المطلة على البحر المتوسط .. ولقد استتبعت هذه العلاقات المغربية الأوربية عقد اتفاقيات بين الطرفين ، نصت على وقف القتال أو الصلح ، وتبادل التجارة .. وكان من الصعب على سلطان المغرب ، بعد توقيع الصلح مع إحدى الدول الأوربية أن يجد رجال الريف والمجاهدون البحريين فيها يواصلون هجماتهم وعملياتهم ، وكأنهم يمثلون قوة مستقلة فى اقليمهم .. وأضطر ذلك سلاطين المغرب الى أن يحاولوا تركيز السلطة فى أيديهم ، وفرض حكمهم الفعلى على منطقة الريف ، حتى تكون العملية واحدة ، وتحت قيادة واحدة ، وفى توافق بين أجزائها .. وكان من الصعب على رجال الريف أن يتخلوا عن عملية جهادهم البحرى وأن ينسحبوا من معركة شاركوا فيها أخوانهم أمراء البحر الجزائريين .. وكان استخدام القوة ، مع اختلاف هدف كل قيادة عن هدف القيادة الأخرى ، فى الريف وفى بقية أقاليم المغرب الأقصى ، علاوة على الأوضاع الجغرافية ، وطبيعة تكوين العناصر فى كل اقليم - كان كل ذلك لا يساعد على نشأة وحدة فعلية ، خاصة وأن رجال الريف كانوا لا يقبلون الخضوع للقوة . ولذلك فان وحدة اقليم الريف مع بقية أقاليم المغرب الأقصى كانت وحدة اسلامية ، وتدخل تحت عنوان الرابطة الاسلامية أكثر من دخولها تحت اسم الوحدة أو حتى الاتحاد .. وجاء ضعف السلطة المركزية فى المغرب الأقصى ، بعد عصر المولى اسماعيل والمولى محمد بن عبد الله ، مع صعوبة المواصلات ، وضعف الامكانيات ، لكى تؤدى الى تفكك هذه السلطنة المغربية ، وفى ضعف ، وبشكل يسمح بقلّة امتداد أى سلطة مغربية داخل اقليم الريف ، الا بالود والاحسان .

وأدى ذلك الى أن يتولى رجال الريف أمور اقليمهم بأنفسهم ،

حتى وان كان القانون الدولي لم يعترف لهم بمثل هذه
الوضعية .

ولقد تطورت الأوضاع في المغرب الأقصى بعد عصر المولى
محمد بن عبد الله ، وفي شكل تقهقر واضح بالنسبة للقوى
الوطنية ، وخاصة في وقت زادت فيه الأطماع الاستعمارية حول
هذه البلاد .. ويمكننا أن نقول ، بدون خطأ كبير ، ان العلاقة بين
السلطات الوطنية في المغرب ، والقوى الاستعمارية المجاورة ،
كانت تعتبر داخل نطاق الانسانية صراعا واضحا بين نظام قديم ،
غلب عليه الشكل الاقطاعي ، ونظام حديث متطور ، اعتمد على
رأس المال ، وبدأ النزول الى ميدان الصناعة ، بما تحتاج اليه
من مواد خام وأسواق للتوزيع .. واذا كانت الدول الاستعمارية
قد بدأت في زيادة اهتمامها بالأقاليم المغربية في نهاية القرن الثامن عشر
وبداية القرن التاسع عشر ، وعلى أساس كونها تشتمل على
سواحل وعلى قواعد استراتيجية هامة ، تخدم الدول الأوروبية في
صراعها مع بعضها ، فان ذلك لم يمنع من بقاء عدد من قواعد
المغرب في أيدي الاسبانيين كما أنه لا ينفي أهمية العامل الاقتصادي
في العلاقات المغربية الأوروبية .. وكان المغرب يعتمد أساسا على
انتاج المواد الزراعية والحيوانية ، أي يعتمد على الأرض ، وغلة
الأرض ، وما يعيش على الأرض من نبات وحيوان وانسان ، وذلك
في الوقت الذي كانت دول أوروبا تعتمد فيه على التجارة ، وبدأت
في النزول الى ميدان الصناعة .. كانت أهم موارد المغرب هي
القمح والصوف والجلود ، ولكنه كان يحتاج الى الأدوات المصنوعة
والى الأنسجة والى الشاي والسكر .. وأن نظرة واحدة لعملية
التبادل التجاري هذه لتثبت أنها عملية تبادل بين نظام يعتمد على
الاقطاع ، ونظام رأسمالي يعتمد على التجارة والصناعة .. ومع
تزايد حاجة المغرب الى المنسوجات والى السكر والشاي ، زاد
اعتماده على الدول الأوروبية الغربية ، وذلك في الفترة التي انخفضت

فيها أسعار المنتجات الزراعية ، وزادت فيها أسعار المواد
المصنوعة .. وبدت هذه العملية في غير صالح المغرب ، ولحساب
الدول الأوروبية ، وهي استعمارية .. ومع تزايد المصالح الأوروبية
في المغرب ، وزيادة اعتماده على الأوروبيين ، سار ميزان الاقتصاد
في صالح الأجانب ، وضد مصلحة البلاد .. واحتاج السلطان الى
تكوين قوات محاربة تساعد على استتباب الأمن وجمع الضرائب ،
فزاد اعتماده على الدول الأوروبية التي يمكنها أن تزوده بالبنادق
وبالبارود ، وفي نفس الوقت الذي زادت فيه الضرائب ثقلا في كل
يوم على كاهل المغاربة .

وكان من الطبيعي أن يحاول المغرب تجديد نظمته ، وأن يسير
على طريقة حديثة ، فاحتاج في ذلك الى رءوس أموال أوروبية ،
وبدأ في الدخول في مشكلة الديون الأجنبية .

انه صراع بين قديم وحديث ، مهما اختلفت العناصر
أو الوحدات أو المواقف التي تشترك في هذه العملية .. علينا أن
ننظر إليها في نطاق يتسع لأكثر من حاكم ، ولأكثر من عصر ، حتى
لا تغفل منا الخطوط العامة لتطور الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية
في تلك الفترة من تاريخ المغرب .

ولقد حدثت هذه التطورات الاقتصادية والاجتماعية في الوقت
الذي قامت فيه فرنسا بثورتها البورجوازية ، وعملت على القضاء
على الاقطاع .. وشاهد المغرب في السنوات التالية تفاعلا «مماثلا»
بين الجزائر واحدى الدول الأوروبية ، وهي فرنسا ، وعلى أسس
اقتصادية مماثلة ، وانتهى الأمر بنزول القوات الفرنسية لاحتلال
مدينة الجزائر في سنة ١٨٣٠ .. واذا كان المغرب الأقصى قد وقف
الى جانب المجاهدين الجزائريين ، أو تخلى عنهم ، نتيجة لضعفه
في عصر المولى عبد الرحمن ، والضغط الفرنسي الذي وقع عليه ،
فان ذلك لم يمنع من انحسار قوة وسلطة وحيوية القوى الاقطاعية
التي كانت تتحكم في أقاليم شمال افريقية في ذلك الوقت ، وامتدت

سلطة القوى الاستعمارية على هذه المناطق .. وانتهى الأمر بالمغرب الأقصى الى أن يجد نفسه مجاورا لسلطات استعمارية فرنسية في الجزائر .

لقد كانت الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية هي أساس تخلى المولى عبد الرحمن عن رجال الأمير عبد القادر الجزائري ، وهم في كفاحهم ضد قوات الاحتلال الأجنبية .. ولكن ، هل يوافق أحرار المغرب وخاصة في الشمال ، على مثل هذا التراجع ، أو على الاعتراف بسلطة فرنسا في الجزائر ، وهم المكافحون والمجاهدون من أجل الاسلام ؟ وإذا كانت معاهدة تافنا قد حددت الحدود بين المغرب الأقصى والجزائر الفرنسية ، وعلى امتداد مائة وخمسين كيلو مترا من ساحل البحر المتوسط حتى تنية الساسي ، فالواقع أن هذه المعاهدة لم تكن ملزمة الا لسلطان المغرب وللسلطات الفرنسية في الجزائر ، إذ أن عددا من رجال الريف ظل يساعد الأمير عبد القادر الجزائري ؛ وحين استتب الأمر للفرنسيين نهائيا كانت الظروف الاقتصادية والاجتماعية هي التي توجه عددا من أبناء الريف الى الاستمرار في النزول من جبالهم ، والسير صوب الشرق حتى الجزائر ، لكي يساعدوا الجزائريين في حصاد القمح ، ويعملوا في مزارع الفرنسيين الجديدة ، ويجنوا العنب ؛ وان كان ذلك لا يعنى أن الأحرار في الريف كانوا يعترفون بسلطة الفرنسيين في الجزائر ؛ إذ أنهم كانوا لا يعترفون بأى سلطة في اقليمهم الا لتلك القيادة التي يقومون باختيارها بأنفسهم ، وعلى أساس الديمقراطية وعلى أساس الحرية .

وتزايدت المصالح الفرنسية في اقليم المغرب الأقصى ، وتزايدت معها الأطماع الفرنسية في هذا الاقليم .. وأصبح طريق المواصلات المؤدى من تلمسان الى وجدة وفاس ، وبعد ذلك صوب المهديّة والرباط والدار البيضاء ، طريقا أساسيا للتعامل التجاري .. وزادت أهمية رعوس الأموال الفرنسية في الدار البيضاء عن رعوس

الأموال البريطانية في طنجة ، والأهمية الاقتصادية للأسبانيين في تطوان . وإذا كانت اسبانيا قد أجبرت المغرب على دفع غرامة حربية كبيرة لها بعد حربها معها سنة ١٨٦٨ فإن هذا العامل نفسه قد أجبر الفرنسيين على الالتجاء الى أسواق رعوس الأموال الأوربية ، وخاصة في باريس ، للتعاقد على القرض اللازم لسداد هذه الغرامة .. ومع نهاية القرن التاسع عشر ، واحتياج ألمانيا الى أسواق جديدة لتوزيع منتجاتها ، وموارد جديدة للمواد الخام ، أخذت المصالح الألمانية ، وبالتالي النفوذ الألماني ، في التزايد في اقليم المغرب الأقصى ، وبشكل يقربه من المصالح ومن الأطماع الفرنسية هناك .. ولكن انجلترا ذات المصالح المتفوقة في طنجة ، والتي تواجه جبل طارق ، لم تكن لتقبل رؤية تفوق النفوذ الألماني هناك على النفوذ الفرنسي ، خاصة وأنها كانت من ناحية تخشى من سيطرة ألمانيا على القارة الأوربية ، وكانت من ناحية أخرى قد تمكنت من تصفية المشكلات الفرنسية الانجليزية المتعلقة بالميدان الاستعماري في افريقية ، بعد حادثة فاشودة سنة ١٨٩٨ .. ولكن بريطانيا كانت من ناحية أخرى لا تقبل تفوق النفوذ الفرنسي في المغرب ، وبشكل يسمح لفرنسا بالسيطرة على هذا الاقليم ، والسيطرة بالتالي على الملاحة في مضيق جبل طارق ؛ ولذلك فإن بريطانيا لم توافق على امتداد النفوذ والمصالح الفرنسية في منطقة مضيق جبل طارق ، وبالتالي في المنطقة الشمالية من المغرب الأقصى ، والتي تطل على البحر المتوسط ، منطقة الريف .. ومع التمهيد لعقد الاتفاق مع اسبانيا . فرضت بريطانيا على فرنسا أن تترك لاسبانيا منطقة شمال المغرب الأقصى كمطقة نفوذ ، وأن يوضع نظام دولي لمنطقة طنجة ؛ أما بقية المغرب الأقصى فيمكن لفرنسا أن تتوسع فيه ، ودون معارضة بريطانيا ، وفي نظير « مقايضة » بعدم معارضة الفرنسيين للنفوذ البريطاني في مصر .

كان هذا هو أساس الاتفاق الودى الذى تم بين رجال السياسة

الأوروبيين في السنوات الأولى من القرن العشرين .. وإذا كان قد انتهى في سنة ١٩٠٤ بالاتفاق الفرنسي البريطاني ، فان فرنسا كانت قد اتخذت المغرب الأقصى وسيلة للمقايضة مع إيطاليا في سنة ١٩٠٢ وعلى أساس عدم معارضة الفرنسيين لزيادة النفوذ الإيطالي في طرابلس الغرب وبرقة ، وفي نظير عدم معارضة الإيطاليين لامتداد النفوذ الفرنسي في المغرب الأقصى .. وبعد الاتفاق الودي ، وبتوجيه من بريطانيا ، وأمام خطر المنافسة الألمانية ، اتفقت فرنسا مع إسبانيا على أن تترك لها المنطقة الشمالية من المغرب الأقصى كمناطق نفوذ .. وتمت بذلك حلقات الاتفاق بين دول الوفاق .. تمت بين العواصم الأوربية ، وان كانت قد اضطرت الى اجتياز عقبات سياسية أخذت شكل مؤتمرات دولية ، أو تهديد بوقوع حرب عالمية ، مع مؤتمر الجزيرة الخضراء سنة ١٩٠٦ ، وأزمة أغادير سنة ١٩١١

دار كل ذلك بين العواصم الأوربية ، ولم تنجح المحاولات التي قامت بها السلطة الفعلية للمحافظة على استقلال البلاد .. وإذا كان المولى عبد العزيز قد اضطر الى التخلي عن السلطنة ، فان المولى عبد الحفيظ الذي تسلم الحكم بعده وعلى أساس منع الأجانب من احتلال البلاد ، قد اضطر كذلك الى التنازل عن السلطنة بعد أن ثارت عليه القبائل ، وأجبره الفرنسيون على التوقيع على معاهدة الحماية سنة ١٩١٢ .

ولكن اذا كانت السلطة الفعلية في المغرب الأقصى قد عجزت عن مواجهة مؤامرات الاستعمار العسكرية والاقتصادية ، فان ذلك لم يمنع من ظهور قيادات جديدة في الميدان ، عملت وجاهدت من أجل الاحتفاظ باستقلال البلاد .. وإذا كانت القوات قد سارت في ذلك الوقت من الدار البيضاء ومن وجدة ، ووصلت الى فاس ، فان ذلك لم يمنع من ظهور حركات تحرير في منطقة

الأطلسي المتوسط والأطلسي الأعلى وبلاد السويس ، وحتى فيما وراء الأطلسي وفي صحراء الجنوب .. وكانت كل هذه الأقاليم تخضع للسلطة المغربية أكثر من خضوع بلاد الريف لها ، وتعترف بهذه السلطة المركزية أكثر من اعتراف أحرار الريف بها .. وإذا كانت فرنسا قد بدأت عملياتها بقوات موجودة بالفعل على ذلك المحور الممتد من وجدة حتى الدار البيضاء . فان منطقة الريف كانت في وضعية مختلفة ، إذ أن إسبانيا لم تكن قد تمكنت في ذلك الوقت من التغل من قواعد الاستراتيجية في سبتة ومليلة صوب الداخل .. وإذا كانت إسبانيا قد حصلت على حق بارسال قوات لها الى مدينة العرائش فان وضعيتها كانت تختلف تمام الاختلاف عن وضعية القوات الفرنسية في المغرب الأقصى .

وكانت فرنسا تحتل طرق المواصلات الأساسية الموجودة وسط منطقة نفوذها ، أما إسبانيا فكانت تركز قواتها داخل قواعد الواقعة على الساحل . وكان عليها أن تبدأ بعد ذلك في التغل في الأقليم حتى تتمكن قواتها من فرض سيطرتها عليه . وعلينا أن نذكر أن فرنسا كانت في ذلك الوقت في أوج اقوتها وعظمتها الاستعمارية ، سواء اكان ذلك من الناحية المادية الاقتصادية ، أم الناحية المعنوية والفكرية ، أما إسبانيا فكانت قد بدأت في الدخول في فترة انهيارها وضعفها ، وشهدت السنوات الأخيرة في القرن التاسع عشر فقدها لكوبا والفلبين في حربها ضد الولايات المتحدة الأمريكية .. وأخيرا وليس آخرا فقد كان على إسبانيا أن تواجه رجالا يعيشون في الجبال ، ويعرفون بلادهم ، ولا يعرفون في الحق مفاوضة ولا مساومة ، ولم يخضعوا لما خضع له الآخرون . وكانت هذه العوامل مجتمعة هي أساس تلك الملحمة التي ستقع بين رجال الريف وبين الإسبانين ، والتي سيفتخر بها العالم العربي والإسلامي ، كدرة من الدرر النادرة في تاريخه المعاصر ، وبقيادة الأمير عبد الكريم الخطابي .

الفصل الثالث

أسرة الأمير وتكوينه الأول

في الوقت الذي تنحدر فيه سفوح جبال الريف انحدارا شديدا صوب البحر المتوسط في الشمال ، تنحدر فيه انحدارا بسيطا الى جنوب طنجة وصوب المحيط الأطلسي .. ومعنى ذلك أن المنطقة الشمالية من المغرب الأقصى يمكن تقسيمها الى قسمين : القسم الشمالي الممتد من مليلة الى سبتة ، والجزء الغربي الممتد من طنجة جنوبا حتى العرائش .. وكانت هذه المنطقة هي التي تخص اسبانيا ، وبصفتها منطقة نفوذ لها ، مع تقسيم سلطنة المغرب الأقصى الى منطقتي نفوذ ، مع الاتفاقيات الثنائية التي بدأت بين الدول الأوروبية الاستعمارية منذ سنة ١٩٠٢ وسنة ١٩٠٤ وتدعمت نهائيا بمعاهدة الحماية سنة ١٩١٣ .

كان الأهالي في هذين القسمين الداخلين في منطقة النفوذ الأسباني يختلفون في كل قسم عنهم في القسم الآخر ، وفي بعض الصفات ، وان كانوا يتشابهون في حبهم للحرية ، وفي عشقهم لها .

كانت منطقة « الجبال » التي تقع الى الغرب والى الجنوب من طنجة قد تأثرت بالعرب نتيجة لقلّة التضاريس ، وقلة صعوبة المواصلات فيها ، ونتيجة لقرب أهلها من مراكز الثقافة العربية في سهول الغرب المطلة على المحيط الأطلسي .. أما منطقة «الريف» والتي كانت تقع الى شرق المنطقة الأولى ، وتمتد فيها سلاسل الجبال الشاهقة ، فقد ظل أبناؤها يحتفظون بلغتهم البربرية ، رغم اعتزازهم بالاسلام .

ولقد عرفت قبائل الريف منذ فجر التاريخ باسم الأمازيغ ، وتمكنت من الاحتفاظ باستقلالها حتى في ذلك الوقت الذي خضعت فيه كل من اسبانيا وطنجة والجزائر لحكم الامبراطورية الرومانية القديمة .. ورغم اصرار الحكومة المغربية على سيادتها على منطقة الريف ، فإن هذه السيادة كانت اسمية ، ولم تتعرض في كثير أو قليل للاستقلال الفعلي لشعب هذا الاقليم . ولقد اشتهر اقليم الريف بحبه للكفاح والجهاد ، وكان هو الاقليم الذي يواجه الخطر الأوربي الزاحف على بلاد المغرب كلها .

وكانت قبيلة « بنوورياغل » والتي تعتبر أكبر وأشهر قبائل الريف ، تسكن الاقليم المواجه لميناء الحسيمة ، وساعدها ذلك على أن تصبح أكثر من غيرها تفتحا للآراء الغربية ، وأكثر من غيرها قوة ، نتيجة لامتلاكها الأراضي الزراعية ، وكان وجود ميناء الحسيمة في أيدي رجال الريف ، وتمكنهم من الاحتفاظ به نافذة حرة مفتوحة على العالم ، يزيد من قوة هذه القبيلة ومن أهميتها ، وخاصة في علاقتها بالخارج ، وفي تمكنها من الاحتفاظ بحريتها واستقلالها .

وكانت قبيلة بنوورياغل قد اختارت الأمير عبد الكريم الخطابي رئيسا لها في السنوات الأولى من القرن العشرين ، وكان يمتاز بالحكمة والحزم في نفس الوقت الذي امتاز فيه بالفتح للآراء الغربية ، وكان يمتاز بالحكمة والحزم ، ورغبته في التقدم بالبلاد . وهو ينتسب الى عمر بن الخطاب ، ثاني الخلفاء الراشدين ، وممثل العدالة والحق في تاريخ الدولة العربية .. وهذا الأمير هو والد صاحب الترجمة ، ولا شك أن هذا الشبل قد جاء من هذا الأسد .. وسيتعلم الأمير عبد الكريم الابن ، من والده عبد الكريم الخطابي الأب ، كثيرا من شؤون الادارة والسياسة والحكم ، والتعامل مع الأهالي ، والتعامل مع الأجانب ، كما سيتعلم منه

- ومنذ صغره - معنى الحق ، ومعنى العدل ، ومعنى الحرية ،
وكيفية ممارسة الاستقلال والحفاظة عليه .

كانت هذه القيادة هي أكبر قيادة تسيطر على قلب اقليم
الريف ، خاصة وأنها كانت تعزز بنفسها وبرجالها وبالإسلام الذي
لا يعرف في الحق اثنين .. أما الى الغرب من هذه المنطقة فقد
كانت هناك قيادة أخرى هي قيادة « الريسولى » في منطقة الجبال ،
وكانت هذه القيادة تعتمد على صلات اقطاعية مع الأهالي ، وعلى
امتيازات وحقوق للأمير الشريف على رعيته التي كان يستغلها ،
باسم الدين ، وباسم ممتلكاته العقارية الكبيرة ، لكي يحصل منها
على كل ما يمكنه أن يحصل عليه .. ولذلك فإن التجاوب بين كل
من الأهالي والقيادة في كل من هاتين القيادتين تأثر بالأهالي من
ناحية ، وبالقوى الأجنبية من ناحية أخرى ؛ وخاصة في وقت
امتداد النفوذ الأسباني صوب الداخل ؛ كما أثر على علاقة كل منها
بالأخرى ، وإن كان ذلك لن يتم بشكل واضح متبلور إلا في
العشرينات ، وبعد انشاء « جمهورية » الريف .

ولقد شاهد الأمير عبد الكريم الخطابي الأب حضور بعض
المستكشفين الأوربيين الى منطقته للتنقيب عن الثروة المعدنية ..
وأدى تنافس هؤلاء المستكشفين الى زيادة اهتمام السلطات
المغربية الحاكمة بسيادتها على هذه المنطقة ، حتى وإن كانت هذه
السيادة اسمية .. ولقد جاءت الاتفاقات الفرنسية الأسبانية
في ٣ من أكتوبر سنة ١٩٠٤ ، ٢٧ من نوفمبر سنة ١٩١٢ لكي تضع
هذه السيادة الاسمية لسلطان المغرب ، وطبقا لألقابه التقليدية في
المنطقة ، تحت الحماية الأسبانية .

وكان اخوان مانسمان الألمان هم أول المستكشفين الأوربيين
الذين وصلوا الى تلك المنطقة ، واتصلوا برأس الأسرة الحاكمة في
القبيلة ، وهو الأمير عبد الكريم الخطابي الأب ، إذ أنه لم يكن في

وسعهم البدء بأعمال التنقيب دون مساعدته ، وهو سيد البلاد ..
ثم اتصلوا بعد ذلك بالسلطان المغربي في سنة ١٩٠٩ ، حتى يعملوا
على تقوية مركزهم من الناحية القانونية ، وحاولوا أن يحصلوا منه
على عقد امتياز لاستغلال مناجم المنطقة .. ثم حاولوا بعد اعلان
الحماية الأسبانية بالاتفاق الفرنسي الأسباني في ٢٧ من نوفمبر
سنة ١٩١٢ أن يصلوا الى اتفاق مع اسبانيا .. ولكنهم وجدوا
اسبانيا عاجزة عن مد سلطتها الفعلية على بلاد الريف ، وعاجزة
بالتالي عن اعطاء أى تسهيلات لاستغلال الموارد الاقتصادية
للاقليم .. فاقترحوا عليها انشاء شركة استغلال استعماري ،
يقومون بتكوينها ، معتمدين في ذلك على صلاتهم بالشيوخ والرؤساء
الوطنيين ، ولفتح بلاد الريف والجبال للاستغلال الاقتصادي
الأوربي .. ولكن الحكومة الأسبانية رفضت هذا المشروع .

ولم تكن فرنسا تنظر بعين الارتياح الى نشاط هؤلاء
المستكشفين الأوربيين الألمان في منطقة الريف . وكانت اتفاقياتها
مع ألمانيا في سنة ١٩٠٩ تسمح لها بالحصول على أولوية في عمليات
التنقيب وعمليات الاستثمار في المغرب .. فقام سلطان المغرب ،
وبإيعاز من فرنسا ، وهي الدولة الحامية في ذلك الوقت ، وبإصدار
مرسومين في ١٩ ، ٢٠ من يناير سنة ١٩١٤ ، وطبقا للمادة ١١٢
من اتفاقية الجزيرة الخضراء ، المعقودة في ٧ من أبريل سنة ١٩٠٦ ،
لتكوين لجنة تحكيم للفصل في الادعاءات والمنازعات
المتعلقة باستغلال الثروة المعدنية والمناجم في السلطنة الشرقية ..
والمهم هو أن الحرب العالمية الأولى قد عملت على تعطيل لجنة
التحكيم ، التي لم تستأنف نشاطها إلا بعد نهاية هذه الحرب ،
وانتهت منها في أول يونيو سنة ١٩٢٢ ، وحكمت ببطلان السند
القانوني لعقود اخوان مانسمان ، سواء في منطقة الحماية
الاسبانية ، أو في منطقة الحماية الفرنسية .. وكان ذلك أمرا
طبيعيا ، خاصة وأن نهاية الحرب العالمية الأولى كانت قد وضعت

أسسا لتصفية الامبراطورية الألمانية نفسها فيما وراء البحار .. وكان من المنطق أن تصفى عمليات الاستغلال الألماني الاقتصادي ، وفي صالح دول الحلفاء المنتصرة ، سواء كان ذلك في المغرب ، أم مع سكة حديد بغداد ، أو في نصيب الألمان في بترول الموصل .. وكان الألمان يدركون قبل صدور قرار التحكيم بأن هزيمة بلادهم في الحرب ستعرق كل نشاط لهم في منطقة تزايد فيها النفوذ الفرنسي ، فانسحبوا من الميدان .. وقام أحد رجال الأعمال الأسبانيين ، وهو ايشيفاريتا دى بالباو بتبني هذا المشروع .. وسواء أكان على اتفاق سابق مع الشركة الألمانية ، أم أنه قد استفاد من نتائج أبحاث رجالها ، فإنه قد ورث عنها صلاتهم الطيبة بأسرة الخطابي . وكان نوابه يفاوضون مع محمد بن عبد الكريم الخطابي في الوقت الذي بدأ فيه الجنرال سيلفستر زحفه الفاشل على أنوال في يوليو سنة ١٩٢١ . وجاءت العمليات الحربية لكي توقف كل نشاط اقتصادي ممكن للأسبانيين في الريف .

كان هذا هو مجمل علاقات اقليم الريف الخارجية بالألمان والأسبانيين والفرنسيين ، منذ السنوات السابقة للحرب العالمية الأولى .. ولا شك أن كل ذلك قد أثر في القيادة الوطنية الموجودة في الاقليم .

وشعر الأمير عبد الكريم الخطابي الأب بأن قبيلته تمتلك في أرضها موارد اقتصادية هامة ، إذ أن هذه البلاد تشتمل على ثروة كبيرة من خام الحديد .. ودفعه ذلك الى الشعور من ناحية بضرورة زيادة تمسكه باستقلاله ، ودفعه من ناحية أخرى الى محاولة اقتباس العلوم الغربية ، ودون أن يؤثر ذلك في شخصية بلاده وفي مقومات أهلها .

وأختار الأمير اسبانيا كدولة يمكنه أن يتعامل معها ، واختارها نتيجة لقربها من اقليمه ، ونتيجة لتقارب عادات وأخلاق أهلها

مع عادات وأخلاق رجاله .. ولكن هذا التعاون كان يهدف صالح الطرفين ، مع احتفاظه بحريته وسيادته ، والمحافظة للاقليم على عاداته وتقاليده وقوانينه .

وأرسل الأمير عبد الكريم الخطابي الأب ابنه الأصغر ، سى محمد الخطابي الى ملقة في اسبانيا للدراسة ، ثم أرسله بعد ذلك الى مدريد للتخصص في هندسة المناجم والتعدين .. وكان ذلك يدل على أن الأمير كان يرغب في الاشراف على عملية استغلال الثروة المعدنية الموجودة في بلاده ، والاشراف على العملية من قرب . أما ابنه الأكبر ، سى محمد عبد الكريم ، والذي سيخلفه في الحكم فيما بعد ، وسيصبح قائد الثوار ورئيس جمهورية الريف ، فان والده قد أرسله لدراسة العلوم العربية والدينية في فاس ، وخاصة الشريعة والفقه .. ولقد استقر الأمير عبد الكريم الابن بعد ذلك في مليلة ، واشتغل بالقضاء الشرعي ، وفي نفس الوقت الذي عمل فيه على التحرير في جريدة « تلغراف الريف » وعمل كذلك كمستشار للسلطات الاسبانية في الشؤون العربية .

ولقد ساعدت دراسة الأمير ، سواء في أسرته وفي اقليمه في أول الأمر ، أو في فاس بعد ذلك ، وهي مركز حركة الثقافة العربية الاسلامية في المغرب الأقصى ، واحتكاكه بالاسبانيين ، وعمله في الصحافة . ساعد كل ذلك على تكوين شخصية الأمير ، وتكوين رجل الريف الذي سينجح في تسجيل اسمه بحروف من نار في سجل كفاح العرب ضد الاستعمار .

ولقد انقطعت العلاقات بين الأمير عبد الكريم الخطابي وبين السلطات الاسبانية بعد فترة من الزمن نتيجة لسير الأسبانيين على سياسة تتعارض مع تلك التي صمم الوطنيون على السير عليها . وأصبحت عبد الكريم الخطابي خيبة في آماله بعد اعلان الحماية الاسبانية على شمال المغرب ، وبعد معرفته للضباط الاسبانيين الذين جاءوا يمثلون بلادهم في هذه المنطقة .. واشتكى في سنة

١٩١٥ الى كل من الحكومتين المغربية والاسبانية ، وكان الرد عليه هو الاتصال في كل ذلك بالجنرال خوردا نا Jordana المندوب السامي الاسباني . وأصدر هذا الجنرال أمره الى الأمير الشيخ بالحضور لتقديم فروض الطاعة والولاء في الحسيمة ، فرفض الشيخ ، فأمر الجنرال بالقاء القبض على ابنه في مليلة ، والقاءه في السجن . . . وبقي الأمير عبد الكريم الابن في السجن أحد عشر شهرا ، ثم أخلى سبيله لكي يوضع تحت المراقبة مدة ستة شهور أخرى ، بدعوة تعديه على أحد ضباط الشرطة الاسبانيين .

ولقد انتظر الشيخ حتى الافراج عن ابنه الأكبر ، وعودة ابنه الثاني من مدريد . وما أن وصلا الى أجدير حتى أعلن القطيعة بينه وبين الاسبانيين .

ولقد حاول بعض الأساتذة الاسبانيين دعوة محمد بن عبد الكريم للعودة الى مدريد ، ولكنه شرح لهم الحالة الموجودة في بلاده ، وسوء تصرف السلطات الاسبانية وانتهاكها للبلاد ، وانتشار اليأس بين رجال القبائل ، وضرورة تغيير اسبانيا لسياستها التي لن تنتهي الا بالحرب . ولم يستلم الأمير أي رد على خطاباته ، وعلم فيما بعد أن الحكومة الاسبانية قد أرسلت نسخا منها الى قوائدها العسكريين في مليلة وتطوان . . . وكان معنى ذلك أنها قد أخذت تنظر اليه بعين الاعتبار ، ولكن على أساس أنه عدو مناوئ .

وصمم عبد الكريم الخطابي على المقاومة ، وعلى ضرورة الوصول الى اخراج الاسبانيين من البلاد ، فأخذ في تجييع الرجال ، واستعد للقيام بعمليات منظمة . . . وحين احتل الاسبانيون تافارسيت في أغسطس سنة ١٩٢٠ ، وتقع في أعالي نهر القرط ، وعلى الطريق الموصل من مليلة الى الحسيمة ، قام على رأس قوة من رجاله لهاجمتهم . . . ولكنه توفي في أثناء الزحف . . . فقرر ابنه الأكبر ، وهو الذي خلفه في قيادة القبيلة - بالاتفاق مع أخيه

الأصغر ، وعمه عبد السلام الخطابي - قرر بالاتفاق معهم أن يستمروا في عمليات الجهاد ، ويخرجوا الاسبانيين من البلاد . . . وإذا كانت عملياتهم الأولى قد ظهرت وكأنهم يحاولون فيها أن يقفوا على الحياد تجاه النشاط الاسباني في أراضي القبائل المحيطة بهم ، والامتناع عن تشجيع القبائل الأخرى على الخروج عن طاعة الاسبانيين ، الا أن هذا الموقف قد تغير نتيجة لزحف الجنرال سيلفستر ، القائد الاسباني لقطاع مليلة ، وتقدمه في سنة ١٩٢١ على رأس قواته صوب الداخل .

ولقد أثبت الأمير عبد الكريم الخطابي الشاب في عملياته الحربية ، وفي ادارته للأقليم ، وعلاقاته بالخارج ، انه قائد ومنظم ورجل دولة ، قل أن يشهد العالم مثله الكثير .

الفصل الرابع

زحف الاسبانيين

كانت الاتفاقيات الدولية تعطى لاسبانيا من ناحية القانون الدولي اعترافا بمنطقة نفوذها في شمال المغرب الأقصى ، وعلى منطقة الريف .. ولكن اسبانيا احتاجت الى مد منطقة احتلالها الفعلي ، من قواعدا المختلفة الموجودة على الساحل الافريقي صوب الداخل ، حتى تصل الى ممارسة نفوذها الفعلي هناك .. وكان عليها أن تقوم بعمليات حربية للقضاء على القوات الوطنية ، كخطوة أولى تمهد لاقامة ادارة لها في المنطقة .. ولم تكن هذه العمليات الحربية سهلة أمام اسبانيا ، رغم امكانياتها البشرية والعسكرية ، والحربية والمالية في ذلك الوقت ، خاصة وأن طبيعة بلاد الريف ، وطبيعة رجالها ، كانت عقبات واضحة تصعب على الاسبانيين أمر فرض نفوذهم الفعلي على هذه المنطقة .. وجاءت أحوال اسبانيا والاسبانيين أنفسهم ، والمتناقضات الموجودة عندهم في ذلك الوقت ، عوامل جديدة تزيد من الصعوبات التي تواجه هذه العملية ، وتصل بها الى مرحلة المغامرة ؛ ولكي تثبت فشل مثل هؤلاء الرجال في القيام بمثل هذا العمل ، في مثل هذه المنطقة في ذلك الوقت .. وواجهت القوات الاسبانية هناك رجالا صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، وصمموا على الجهاد .. وكانوا رجال الريف ، وبقيادة الأمير عبد الكريم الخطابي .

كانت اسبانيا في ذلك الوقت قد خضعت لسيطرة تامة وواضحة لعدد من الضباط والعسكريين ، الذين فرضوا أنفسهم على الحياة العامة في بلادهم ، وحاولوا أن يفرضوا أنفسهم وطريقتهم على سياسة اسبانيا الخارجية ، ويسيطروا بنفس الطريقة على منطقة نفوذهم التي اعترفت الدول بها لاسبانيا في شمال المغرب

الأقصى .. ورغم العزة والافتخار التي كانت تملأ قلوب وعقول هؤلاء الرجال ، فانهم كانوا قد أثبتوا عمليا عدم صلاحيتهم في الحرب ، وعدم صلاحيتهم في السلم ، وفشلهم في مشروعات استعمارية امتلات بالمتناقضات ، واختلطت فيها العناصر النفسية والمعنوية بالاستراتيجية والتكنيك العسكري .

ولا شك في أن شعور هؤلاء الضباط والعسكريين بضحالتهم وضعفهم قد انعكس وتبلور في شكل صرامة واستخدام للقوة ، دون دراية بطريقة استخدامها ، والوقت اللازم لذلك . وكانت هناك عناصر عسكرية أخرى موجودة ذلك الوقت في المغرب الأقصى ، وهي القوات العسكرية الفرنسية ، في منطقة الحماية الفرنسية . وكانت هذه العناصر قد تمكنت باستنادها الى القوة الفعلية ، الاقتصادية والحربية ، من أن تستفيد من الظروف والمواقف السياسية ، لكي تفرض نفسها على منطقة نفوذها ، وتسيطر عليها .

وكانت هذه العناصر الفرنسية قد عملت باسم القيادة الوطنية الموجودة ، وباسم سلطان المغرب ، وادعت أنها تخضع البلاد له ولسلطته ، وتقوم بهذه العملية لحسابه ، وتحمي بذلك المصالح الاستعمارية والتجارية للأوربيين هناك .. وكانت قد عملت باسم « الحماية » وطبقته ، واعتمدت على رجال وقادة وطنيين ، لهم قيمتهم في تثبيت أقدام نظام الحكم الجديد في المنطقة ؛ وظهر من أول نظرة وكان نظام الحماية الفرنسي هو نظام تعاون وتكامل بين القيادات الوطنية والقوات الأوربية .. ولكن الاسبانيين عجزوا عن فهم هذه الطريقة ، أو فهموها ورفضوا تطبيقها ، وكأنها تقلل من قيمتهم العسكرية ، ومن قيمة الانتصار الذي كانوا ينادون به على الأهالي . وحاولوا أن يحكموا منطقة نفوذهم بالقوة ، وبالقوات العسكرية ، وبدون تفاهم مع الوطنيين ، واستنادا الى حقوق اتفقوا عليها مع الدول الأوربية .. وكانت هذه الطريقة تعتبر

صداما واضحا مع كل ما هو وطني ، ودقعا للأهالي الى الوقوف مع قياداتهم الوطنية أمام الأجنبي المحتل . . ولم يكن استخدام القوة مع الرجال الأحرار الا ليزيدهم بأسا وقوة وتصميما على رفض التحكم في بلادهم . . وفهم الأهالي أن السياسة الإسبانية تعمل من أجل عظمة اسبانيا وعزتها ومصالحها وحدها ، دون اعتراف للوطني بأي حق في بلاده . . وكان هذا يدل على انقلاب الأوضاع ، خاصة وأن رجال المغرب كانوا يعلمون بما قاموا به في الأندلس ، وما قدموه لهذه البلاد من تراث وحضارة ، ونظام حكم ، ومن دماء .

وكانت اسبانيا قد حاولت عن طريق بعض قوادها في شمال المغرب ، وفي فترات معينة ، من استخدام « السياسة » ، أو الوسائل السلمية تجاه الأهالي ؛ ولكن هذه السياسة جاءت خرقاء ، وجاءت متحكمة كذلك في عباد الله الصالحين ، ومتعارضة مع مصالحهم ، خاصة وأنها اشتملت على محاولات لمساعدة أحد الأهالي على فرض نفسه على الاقليم بأكمله ، وفي نظير اعترافه بولائه لاسبانيا ، كما تمثل ذلك في سياسة الجنرال خوردانا والجنرال بورجيت تجاه الشريف الريسولي . . ولم يكن في وسع الأهالي أن يقبلوا أن يهضموا مثل هذه السياسة ، خاصة وأن الريسولي افتقر الى الشعبية ، وكان يستخدم الشدة والعنف مع الأهالي ، ويعمل على استغلالهم ؛ كما أن ترابط مصالحه المالية مع الأوربيين ، وانفصاله عن رجاله الوطنيين ، لم يكن مما يساعد على موافقة الأهالي على مثل هذه السياسة .

وكان الاسبانيون قد حاولوا كذلك الدخول في عملية قلب واثارة الرؤساء الاقطاعيين الوطنيين بعضهم على بعض ، حتى تتمكن اسبانيا من الوصول عن طريق هذه التفرقة الى السيادة ، كما ظهر في سياسة الجنرال بيرنجر ، والذي تعتبره اسبانيا أكبر قائد واداري أرسلته الى المغرب في تلك الفترة . والنواقع أن هذه السياسة كانت تتعارض مع المصالح الفعلية للقوى الوطنية

الموجودة في المنطقة ؛ وإذا كانت بعض القيادات قد وافقت عليها ، فإن رجال الثورة والجهاد قد رفضوها . وكانت الوحدة الوطنية أمام عدو أجنبي ومسيحي ، وعدو تقليدي ، لا تسمح لمثل هذه السياسة بالصمود طويلا في الميدان .

ولقد دل كل هذا على افتقار اسبانيا الى الرجال الذين يمكنهم النزول الى بلاد الريف ، والرجال الذين يمكنهم منازل أبطال الريف . ولا شك أن هذا العامل ، مع شعور اسبانيا بالضعف ، جعلها تثبث بضرورة استخدام القوة والشدة ، والى أقصى درجة ممكنة ، ما دامت تفتقر الى رجال الفكر والعلم والسياسة ؛ وذلك في الوقت الذي كانت فيه اسبانيا أكثر تخلفا عن جارتها الأوربية ، وزميلتها في المفامرة المغربية ؛ أكثر تخلفا عن فرنسا ، وفي النواحي العسكرية والاقتصادية . وكان من الصعب اقامة مقارنة بين القوات العسكرية والاقتصادية لكل منهما .

وكان الاسبانيون قد بدءوا عملياتهم لاحتلال منطقة نفوذهم في شمال المغرب الأقصى من ثلاث قواعد هي مليلة في الشرق ، وهو المكان الذي بدءوا منه تقدمهم صوب الداخل في ٢٠ من سبتمبر سنة ١٩٠٩ ، وسبتة التي كانوا قد تقدموا منها جنوبا مع ساحل البحر الى تطوان ومصب ريومارتان في ابريل سنة ١٩١١ ، ومن شاطئ المحيط الأطلسي وذلك الشريط الساحلي الواقع بين العرائش ومنطقة طنجة ، والذي احتلوه في صيف سنة ١٩١١ . وكان احتلال الاسبانيين لتلك المناطق من الأراضي السهلة المنبسطة عملا هينا نسبيا ؛ ولكنهم عجزوا عن التقدم في بلاد الريف ، نتيجة لصعوبتها وصعوبة أراضيها ، وأراضي منطقة الجبال المكملتها . وبدلا من أن يتخذ الاسبانيون سياسة الشدة ، ويضعوا خطة عسكرية لاختضاع بقية منطقة نفوذهم ، والسيطرة عليها ، بدءوا في استخدام السياسة ، وقام الجنرال خوردانا ، المندوب السامي الاسباني بالاتفاق في سبتمبر سنة ١٩١٥ مع الريسولي ، رغم أنه كان قاطع طريق معروف ، يقيم في تلك المنطقة ، ويفرض نفسه عليها ،

ويعيش من السلب والنهب ، ويحتذى وراء النفوذ الأجنبي . وفشلت هذه المحاولة الاسبانية للسيطرة على منطقة الجبال بهذه الطريقة ، مادام الريسولى كان يفتقر الى شعبية بين الأهالى ، ويفتقر الى تقرير الرؤساء المحيطين به . ولذلك فان الجنرال بيرنجر الذى خلف الجنرال خوردانا فى منصب المندوب السامى فى نوفمبر سنة ١٩١٨ قد اختار سياسة العمل ، وسياسة العمليات العسكرية ، ودون أن تكون لديه الخبرة والرجال اللازمون لهذه العملية ، وفى ظروف معنوية غير مواتية ، وفى أراض تصعب طبيعتها من عملية تنفيذ مثل هذه السياسة . وكان رجال الريف يتتبعون من أعلى معاقلهم تحركات الاسبانين العسكرية ، ومناوراتهم السياسية ، ويستعدون للقائهم ، ولنزالهم ، ولاخراجهم من البلاد .

حقيقة أن اسبانيا كانت قد سلحت قواتها بآخر وأحسن ما أنتجته المصانع الحربية الأوربية فى فترة الحرب العالمية الأولى وما بعدها ؛ ولكن التسليح لم يكن ليعوض افتقار الجنود الى حسن التدريب ، والى الضبط والربط . وإذا كان أبناء الريف قد افترقوا فى أول أمرهم الى الأسلحة ، فانهم قد تمكنوا من الحصول عليها ، ومن أيدي الأعداء ، وفى ميدان المعركة ؛ واعتمدوا فى ذلك على حسن تنظيم قواتهم ، وبشكل ساعدهم على التفوق على خصومهم . . . وكان من الصعب على الاسبانين معرفة طبيعة الأرض ، واستغلالها لصالحهم أكثر من معرفة أبناء البلاد بها ، وبكل شبر منها ، هذا علاوة على ارتفاع الروح المعنوية عند الرجال الوطنيين ، وبصفتهم من الأحرار والثوار ، وبشكل لا يمكن موازنته بالروح المعنوية لجنود تعمل فى الميدان الاستعماري . وكان أبناء البلاد يدافعون عن أراضيهم وأبنائهم وأرزاقهم ، وما دام التحدى والقوة هو موضوع الجدل ، فان أبناء الريف كانوا يدافعون كذلك عن شرفهم ، ويدافعون عن بلاد الاسلام ضد القوات المسيحية . . ولا شك أن هذا السلاح المعنوى كان عاملا فعلا فى وصول الثوار فى بلاد الريف

الى مستوى عال من « التسخين السياسى » ، يصعب على أى عدو عملية نزالهم ، وخاصة فى معاقلهم .

وعلىنا أن نضيف الى ذلك مسألة انقسام القوات الاسبانية فى اقليم شمال المغرب الى ثلاث وحدات محاربة ، لها ثلاثة قيادات : الأولى فى مليلة فى الشرق ، والثانية فى سبتة المطلة على المضيق ، والثالثة فى العرائش الواقعة على المحيط الأطلسى جنوب طنجة ؛ ورغم أن هذه القيادات الاسبانية لم تكن منفصلة عن بعضها جغرافيا ، الا أن كلا منها كان يتصل بوزير الحربية الاسبانية فى مدريد رأسا . . . وكان هذا الاتصال المزدوج بينها وبين القائد العام فى شمال افريقية ، ومع وزارة الحربية فى مدريد فى نفس الوقت ، يعتبر فوضى واضحة ، تتعارض مع حسن التنظيم ، وتهدد بفشل أى سياسة أو خطة متكاملة فيما بينها ، وخاصة اذا ما تدخل عامل التنافس الشخصى بين هؤلاء القادة ، الفخورين بأنفسهم أكثر مما يتطلبه واقع الأمر . . . وامتلا الموقف بالتناقضات بين هذه القيادات ؛ فنجد من ناحية أن حكومة مدريد قد عينت الجنرال بيرنجر فى أول سبتمبر سنة ١٩٢٠ قائدا عاما للقوات الاسبانية فى شمال افريقية ، علاوة على كونه مندوبا ساميا فى المنطقة ، وكان هذا يدل على ضرورة توحيد العمليات العسكرية مع الخطط السياسية فى المنطقة بأكملها . ولكن الجنرال بيرنجر ترك لقواد المناطق المختلفة الخاضعة له حرية الاتصال بحكومة مدريد ، وبوزارة الحربية فى مدريد ، وبشكل يسمح بزيادة الفوضى ، ويتنافى مع التخطيط ، ومع سياسة التكامل فى العمليات . وشهد العام التالى فشله فى اجبار الجنرال سيلفستر على تنفيذ سياسته وخطته الاستراتيجية .

وعلىنا أن نذكر بعد ذلك سوء أحوال وسائل المواصلات بين القيادات الثلاث ، والحالة العامة التى عاش فيها ضباط أركان الحرب الاسبانين فى ذلك الوقت ، وفساد القادة فى الجيش الاسبانى نتيجة لتدخل العوامل السياسية والشخصية بينهم .

وأدت كل هذه العوامل الى اضعاف مجموع القوات الاسبانية في تلك المنطقة ، في ذلك الوقت الذي قرر فيه رجال الريف وقف التوسع الاسباني ، وطرد الاسبانيين من البلاد .

والظاهر أن الجنرال سيلفستر كان قد فرض على الجنرال بيرنجر فرضا ، وأن روح التنافس بينه وبين رئيسه قد دفعته الى القيام بهجوم من مليلة في الوقت الذي كان الجنرال بيرنجر يرغب فيه في تركيز كل قواته في القطاع الغربي . . . وكان الجنرال سيلفستر يعتمد على الدسائس ، ويستند الى بعض الشخصيات الكبيرة في مدريد لكي يستمر في منافسته لقائده الأعلى ، ومناوشته له .

لقد كانت ظروف الاسبانيين غير مواتية ، في الوقت الذي بدءوا فيه في النزول الى ميدان العمليات ، وفي الوقت الذي صمم فيه رجال الريف على القضاء على هذه العمليات ، وعلى تحرير البلاد من الأجانب .

وكانت خطة الجنرال بيرنجر تتلخص في اخضاع احدى المناطق بعد الأخرى . وكانت تستتبع تركيز معظم قواته في هذه المنطقة ، واتخاذ موقف المدافع في القطاعات الأخرى ، حتى لا يوزع قواته ومجهوداته ، وحتى يتمكن من الوصول الى حل عملي في جزء معين ، قبل أن يبدأ العمل في بقية الأجزاء . . . وبدأ الجنرال بيرنجر في تنفيذ خطته ، وأخضع الانجارا ، واستعد لمهاجمة الريسولى . . . وأوعز الى خليفة السلطان في المنطقة الخليفة ، أي المنطقة الاسبانية ، بأن يعلنه خارجا عن القانون ؛ وصدر بيان بذلك بالفعل في ٥ من يونيو سنة ١٩١٩ . وتمكن الاسبانيون من احتلال شفشاون ، لأول مرة الجبل ، في ١٤ من أكتوبر سنة ١٩٢٠ ، وذلك كجزء من عملية تهدف عزل الجبالا وتطويقها ؛ ثم هاجموا الريسولى في سنة ١٩٢١ . ووصلت القوات الاسبانية الى مسافة ستة كيلو مترات من تازاروت ، قصبة الريسولى ، في أثناء العمليات

التي وقعت فيما بين ٢٥ من يونيو ١٩١٩ من يوليو من تلك السنة . وأعطى الجنرال بيرنجر للريسولى مهلة تنتهي في يوم ٢٢ من يوليو لكي يسلم . . . ولكن هزيمة ساحقة وقعت في نفس اليوم لقوات الجنرال سيلفستر في قطاع مليلة ، على أيدي رجال بنوورياغل ، وبقيادة الأمير عبد الكريم الخطابي . . . وحينما وصلت خطابات الريسولى الى أيدي الجنرال بيرنجر كان هو ورجاله قد ابتعدوا صوب الشرق ، لكي يحاولوا انقاذ ما يمكن انقاذه من بقايا جيش القطاع الشرقي ، الذي أنهى عليه رجال عبد الكريم الخطابي .

الفصل الخامس

معركة أنوال

كان الجنرال سيلفستر قد أخذ في اعداد مشروع خاص به في قطاع مليلة ، في نفس الوقت الذي كان الجنرال بيرنجر ينفذ فيه خطته في الغرب . وكانت خطة الجنرال بيرنجر تتطلب المحافظة على الهدوء في بقية القطاعات الأخرى ، والى أن تتم عملية اخضاع اقليم الجبالا . . والواقع أن مشروع الجنرال سيلفستر لم يكن مضادا لمشروع رئيسه ، الا أنه كان يهدد بالوصول الى اشتباكات مسلحة ، وحالة حرب وعمليات ، في الوقت الذي انشغلت فيه بقية القوات الاسبانية في القطاعات الأخرى في عمليات خاصة بها . . وتقدم الجنرال سيلفستر في سنة ١٩٢٠ الى غرب نهر القرط واحتل دار داريوس في شهر مايو ، ثم تافارسييت في شهر أغسطس . . ولم يصادف الجنرال سيلفستر مقاومة من جانب قبائل بنوورياغل ، فاعتقد في سهولة الأمر عليه ، وفشل في معرفة تصميم هؤلاء الرجال على استدراجه ، وكذلك استدراج قواته في داخل المناطق الجبلية المرتفعة . . واستمرت قوات الجنرال سيلفستر في تقدمها دون أن يتمعن هذا القائد في الأمر ، وحصلت على بعض الانتصارات في مدة أسابيع قليلة ، فدفع ذلك قائدها الى الشعور بالفروور ، والاستمرار في التوغل ، حتى احتل أنوال في ١٥ من مايو سنة ١٩٢١ . . ولم يعرف أن هذا الانتصار كان مجرد انتصار وقتي .

كان زحف الاسبانيين بهذا الشكل اعتداء واضحا على حقوق الاقليم ، واستهانة برجاله ، وعدم اعتراف بحرية رجال الريف . .

وحاول الأمير عبد الكريم الخطابي أن يحذر الجنرال سيلفستر من خطورة الاستمرار في التقدم ، والدخول في مناطق لا تعترف بحكم اسبانيا أو بالحماية الاسبانية الأجنبية . . ولكن الجنرال سيلفستر كان قد أعماه الفروور ، واعتقد في امكانية فرض نفسه وقواته على البلاد ، فأصم أذنيه عن نصيحة الأمير عبد الكريم الخطابي ، التي كانت تحذيرا واندارا للأجانب في نفس الوقت . ويظهر فروور الجنرال سيلفستر من أنه قد قام بهذه العملية رغم اخبار الجنرال بيرنجر له في ٢١ من مايو بأنه لن يتمكن من ارسال أى نجدات اليه . . كما أن الكولونيل موزاليس ، قائد الشرطة والمسئول عن الأمن العام في قطاع مليلة ، كان قد أوصاه باستخدام السياسة بدلا من الشدة والعنف ، وخاصة مع الأمير عبد الكريم الخطابي . . ولكن الجنرال سيلفستر أصم أذنيه عن كل هذه النصائح ، وأرسل ردا جافا كل الجفاف الى الأمير . . وذكر له أن اسبانيا لها من القوة ما يسمح لها بالذهاب أينما شاءت ، وانه قد صمم شخصا على دخول أراضي بنوورياغل واخضاعهم ، حتى ولو كان رجال عبد الكريم أنفسهم سيحاولون منعه . وهكذا اختار هذا الجنرال طريق العنف بدلا من السياسة والتفاهم ، والمحبة والاحسان ، وحمل قراره معنى الفروور والتحدى ، وفي وقت صعب فيه على قيادة الجيش الاسباني العامة أن تسانده في حركته ، ما دامت هذه القيادة كانت مشغولة أمام الريسولى في اقطاع الجبالا . . واتخذ هذا الطريق لكي يسير في أراض طبيعتها في صالح الوطنيين، ولهم روح معنوية تمتاز عن روح الاسبانيين .

وكانت قوات الجنرال سيلفستر مشكلة من ٢٤٠٠٠ جندي ، منهم أربعة آلاف من مجندي المغاربة ، وكان لديه في أرض العمليات في الداخل ما يقرب من ٢١٠٠٠ جندي ، مجهزين بالأسلحة والمدفعية والمدافع الرشاشة . . فصمم على تنفيذ وعيده دون استشارة الجنرال بيرنجر ، واحتل جبل عبران في أول يوليو ، وهو جبل يقع على بعد ١٢ كيلوا مترا من أنوال ، ويطل على

الحسيمة ومنطقة أجدير ، مركز قبيلة بنوورياغل . وكان معنى ذلك الدخول في الحرب ضد الأمير عبد الكريم الخطابي . وكانت قيادة الأمير عبد الكريم الخطابي لقبائل بنوورياغل أساسا صالحا لتولي قيادة عمليات تحرير البلاد من المحتلين الأجانب . كما أن التفاف عدد من رجال المنطقة المحيطة به حوله ، وتصميمهم على الجهاد ، قد عمل على زيادة عدد رجاله اللازمين للنزول الى المعركة . . وكان الأمير عبد الكريم الخطابي مع تلك المجموعة من الرجال التي أحاطت به ، وأصبحت أركان حرب له ، قد بدأ في تنظيم الرجال وتوزيعهم على المناطق والمواقع في الجبال ، وتسهيل عملية الاتصال بهم ، وبطريقة منظمة ، وفي شروط وأعية من الضبط والربط ، مع كفاءة عالية في التدريب . وكانت هذه المواقع المنتشرة على سفوح الجبال وقممها ، والتي تتصل ببعضها بسهولة ، وتحظى بتأييد كل الأهالي ومعونتهم ، وحتى النساء والأطفال ، تعتبر شبكة قوية يصعب على أى قوات أجنبية أن تقضى عليها بسهولة . وكانت الطرق والمسالك الموجودة في هذه المنطقة الجبلية قليلة في عددها ، وخاصة تلك التي تسمح بمرور قطع المدفعية وقوافل التموين . . وكان في وسع الوطنيين أن يقوموا باصطياد هذه الطوابير المتحركة بمنتهى السهولة ، وهم في مواقعهم ومراكزهم المنتشرة في كل مكان ، والتي يصعب على العدو أن يكتشفها بسهولة . وكان هذا التنظيم لمجاهدى الريف ، مع حسن الضبط والربط ، سببا أساسيا لانتصار هؤلاء الرجال على القوات الاستعمارية المغرورة ، والتي تزحف في الاقليم ، وفي ظروف في غير صالحها .

وما أن احتل الاسبانيون جبل عبران حتى قام رجال بنوورياغل بمهاجمته في نفس الليلة ، وتمكنوا من احتلاله . . وكانت بداية العمليات الحربية . . وكانت القوة الاسبانية المعسكة في هذا الموقع تتكون من ٢٥٠ جنديا ، منهم مائتان من المجندين المغاربة . وما أن ابتداء القتال حتى أسرعوا بترك خطوطهم ومواقعهم ،

وأسلحتهم في أيديهم ، وانضموا الى اخوانهم المغاربة المهاجمين . وأثبتت هذه العملية عدم أمن استخدام العناصر الوطنية في القوات الاستعمارية ، في وقت ثورات التحرر الوطنية ، كما أثبتت وجود صلات بين رجال عبد الكريم الخطابي وبين المجندين المغاربة في القوات الاسبانية في شمال افريقية في ذلك الوقت .

ولقد واصل أبناء الريف هجومهم بعد ذلك على جميع المواقع التي كان الاسبانيون قد احتلوها في شهرى ديسمبر ويناير في هذه المنطقة ، وحاصروا هذه المواقع . واضطرت حامية ايجريين الى الاستنجاد بالجنرال سيلفستر ، وطلبت امدادها بالماء والمؤن . وحاول الجنرال أن ينجدها ، وأرسل طابورا للقيام بهذه العملية . . ولكن هذا الطابور الاسباني فشل في فك حصارها ، أو المرور بين القوات الوطنية المحاصرة لها ، وفشل حتى في الاتصال بها .

وشعر الجنرال سيلفستر بخطورة الموقف بعد أن وجد قواته ومواقع محاصرة في كل مكان . . وشعر بأن كل اتصال بينها قد انقطع . . فاضطر الى القيام بمحاولة لتجميع معظم قواته في مكان معين ، حتى يتمكن من مواجهة الموقف ، وعمل على تركيز جميع قواته الموجودة في قطاع مليلة في موقع أنوال ، وحاول أن يقوم بعمليات جديدة لفك حصار ايجريين في ٢١ من يوليو . . ولكن رجال الريف كانوا قد حصنوا خطوطهم حولها ، وردوا الاسبانيين القادمين من جديد .

وساء الموقف في ايجريين ، وانخفضت الروح المعنوية عند المحاصرين ، واثارت فكرة العزة والكرامة نتيجة لرؤيتهم الهزيمة ماثلة أمام أعينهم ، وعلى أيدي الوطنيين ، وفي وسط هذه المتناقضات من روح الاستسلام والعزة والرغبة في الانتصار ، أخذ بعض الضباط في الانتحار ، حتى لا يعيشوا ويروا الهزيمة . . ووصل الذعر الى قلب الجنرال سيلفستر نفسه ، الذي قرر العمل على انقاذ ما يمكن انقاذه ، وأصدر أمره باخلاء ايجريين

والانسحاب منها .. ولكنه شعر بأن قواته الرئيسية التي جمعها في أنوال نفسها قد أصبحت مهددة بعد أن حاصرها وطوقها رجال الريف ، وفي ليلة مليئة بالقلق فقد القائد الإسباني سيطرته على الموقف ، وسيطرته على نفسه ، في الوقت الذي فقد فيه الجنود روحهم المعنوية ، وانتشر بينهم الذعر ، وفي صبيحة اليوم الثاني والعشرين ، وتحت تأثير الخوف من هجوم رجال الريف ، أصدر الجنرال سيلفستر أمره بالانسحاب من أنوال نفسها ؛ وكان التقهقر ، وكان الالتحام ، والفوضى ، وكانت الهزيمة الساحقة .

ومن الصعب على الخبراء العسكريين أن يقدموا تقريراً مفصلاً عن طريقة سير العمليات في هذا اليوم ، وفي هذه الموقعة ؛ إذ أن مواقع رجال الريف حول أنوال ، وطريقة تحركاتهم وقت محاولة الأسبانيين الخروج والانسحاب لا تزال أمراً غير ثابت من الناحية العملية .. وبقي الجنرال سيلفستر في ذلك الموقع ، ولكن أحداً لم يعرف مصيره على وجه التحديد . أما القوة الأسبانية فإنها قد اندفعت على الطريق الموصل إلى مليلة ، وفي حالة ذعر وفوضى ، وروح معنوية لا تحسد عليها .. وقام المجندون المغاربة في القوات الأسبانية بالانفصال عن هذه القوات ، وانضموا إلى أخوانهم رجال الريف ، واشتركوا معهم في مهاجمة وتعقب الأسبانيين أثناء تقهقرهم .

وكان لأسبانيا عدد من الحاميات موزعة على مواقع عسكرية بين أنوال ومليلة ، وكان عدد هذه المواقع ١٣٠ موقعا ، وفر معظم رجال هذه الحاميات ، إلا من بقى في مكانه منهم ، فقد اضطر إلى التسليم .

ولم يأت يوم ٢٥ من يوليو إلا وكل الاقليم ، وحتى أسوأ مليلة ، قد وقع في أيدي الثوار المجاهدين .. حقيقة أن الجنرال نافارو كان قد تمكن من أن يصل ببقية القوة المتقهقرة إلى ما يقرب من ٤٠ كيلو مترا من مليلة ، ولكنه كان قد فقد كل قطع المدفعية ،

ومعظم أسلحته وذخائره وتموينه .. ورغمما عن أن الجنرال بيرنجر كان قد وصل إلى مليلة في ٢٣ إلا أنه قد فشل في الخروج من المدينة ، وفشل في كل المحاولات التي قام بها لانقاذ بقايا هذه القوات المتقهقرة والمنسحبة في هزيمة تامة ، وفي فوضى واضحة .. وظل الجنرال نافارو مع بقايا جنوده محاصرا في مواقعه أمام مليلة ، وعجز عن الوصول إلى القاعدة الأسبانية الرئيسية ، وعن الاتصال بقائده العام بيرنجر هناك .. وظل على هذا الوضع حتى يوم ٩ من أغسطس ، دون أن يتمكن أحد من إمداده أو إنقاذه ، رغم قرب أسبانيا نفسها من مليلة . فاضطر الجنرال نافارو إلى التسليم إلى قوات التحرير المغربية المحاصرة له ، فأرسلوه أسيرا إلى الأمير عبد الكريم الخطابي ، القائد العام لعمليات التحرير .

ولقد قضت هذه العملية على جيش الجنرال سيلفستر ، ولم يبق بعدها في مليلة نفسها إلا بضع مئات من الجنود . وإذا ما رجعنا إلى إحصائيات الأسبانيين أنفسهم عن خسائرهم فيها فإننا نجد اعترافهم بفقد ١٤٧٧٢ رجلا ؛ و ٢٩٥٠٤ من البنادق و ٣٩٢ مدفع رشاش و ١٢٩ مدفع ميدان ، علاوة على ٥٧٠ أسيرا .

وعلى أن نعترف بأن هذه الهزيمة التي حاقت بالأسبانيين في أنوال على أيدي رجال عبد الكريم الخطابي كانت أكبر وقعا من الناحية النفسية عنها من الناحية المادية ؛ ولم يكن أي جيش أوروبي قد ذاق مثل هذه الهزيمة الساحقة على أيدي الوطنيين فيما وراء البحار منذ هزيمة القوات الإيطالية في عدوة سنة ١٨٩٦ .

ومنذ ذلك الوقت سيطرت « المسألة المغربية » ومشكلة الريف ، على الحياة العامة في أسبانيا ، وسحقت ميزانياتها واستنزفتها ، وأضعفت قوتها من الرجال . أما الريف فإنه قد سار في طريق الثورة ، هادفاً تحرير بلاده ، وبقوة رجاله ، وبقوة السلاح ، وبقيادة الأمير عبد الكريم الخطابي .

الجريدة في اليوم التالي .. ولقد زادت قيمة انتصارات أبناء الريف نتيجة لوقوفهم أمام عدو ثبتت عدم صلاحيته للنزول الى مثل هذا الميدان ، وأمام أمثال هؤلاء الرجال .

وكان الأمير عبد الكريم الخطابي ثائرا يعرف معنى الثورة ، وقائدا يعرف طريقة وضع الخطط ، وطريقة الوصول الى هدفه ، والانتصار . وكان وطنيا يؤمن بحق أبناء البلاد في أن يعيشوا في ظل حرية ، وفي ظل مساواة ، فرفض سيطرة الأجنبي وتسلمه على منطقة لم تعرف القهر أو الخضوع ، منذ فجر التاريخ .

وكان الأمير عبد الكريم الخطابي قد صمم على رفض الحماية الاسبانية ، وصمم على الاستقلال ، وعلى ضرورة ضم كل رجال الريف والجبال الى ثورته ، والسير بهم في حرب تحرير وطنية ضد الاسبانيين .

لقد كان في وسع أبناء الريف أن ينهوا الحرب بسرعة ، وبموقعة عسكرية هامة ، اذا ما قاموا بعد أنوال بالزحف على مليلة ، ومحاصرتها واحتلالها ، خاصة وأن هذه المدينة ظلت لمدة أسابيع عديدة بعد هزيمة الاسبانيين في أنوال وحاميتها ضعيفة ؛ ولكن افتقار أبناء الريف الى وسائل الدفاع البحرية والساحلية أجبرهم على الاحتفاظ بقوتهم لعمليات تقع في ميادين أخرى ، ويضمنون فيها النصر . وعلى أي حال فقد سمح ذلك للاسبانيين بارسال قوة بلغت ستين ألف جندي الى هذه المدينة المهددة .. وبدأ الجنرال بيرنجر هجوما مضادا في ١٢ من سبتمبر سنة ١٩٢١ ، وبعد سنة وخمسين يوما من هزيمة قواته ، أو هزيمة قوات قائده سيلفستر في أنوال .. ولكن الاسبانيين عجزوا عن احتلال جبل خورخو ، وهو الجبل الذي يتحكم في مليلة من الجنوب الغربي ، الا في الأسبوع الأول من شهر نوفمبر .. وأما خط نهر القرط فانهم لم يبلغوه الا بعد شهر آخر .. ولكن الاسبانيين تمكنوا من احتلال الشريط الساحلي الواقع بين نهري القرط والمليلة قبل

الفصل السادس

مواصلة عمليات التحرير

اعتمد الأمير عبد الكريم على الفنون الحديثة الموجودة في دول الغرب أساسا للقيام بعملياته ، في الوقت الذي عجز فيه الاسبانيون عن تطبيق هذه الفنون في منطقة نفوذهم في شمال المغرب .. ودرس الأمير الاستراتيجية التي طبقها في الحرب ، وأصبح يحصل على ما يلزمه من مال وسلاح من أيدي الاسبانيين أنفسهم .. وزود أبناء الريف أنفسهم بما يلزمهم من معدات وأسلحة وذخائر ، وحتى أجهزة التليفون ، والآلات الكاتبة ، وذلك من الفنائم التي كانوا يحصلون عليها من الاسبانيين .. أما الأموال فكانوا يتسلمونها نظير اقتداء ما يقع في أيديهم من أسرى . لقد تمكن عبد الكريم الخطابي بهذه الطريقة من أن يزود قواته بكل ما يلزمها ، وبشكل ساعد على استمرار نمو قوته ، وبشكل أربح الأعداء .

ولقد سرت بعض الاشاعات مدعية أن الأمير كان يتلقى المال والسلاح ، والذخائر وبعض المعونة الفنية من دول خارجية ، وبشكل سمح لكل دولة أوربية بأن تتهم الوطنيين في الدول الأخرى المعادية لها ، أو المنافسة لها ، بمساعدتها لعبد الكريم . والواقع أن مروجي هذه الاشاعات كانوا من قصر النظر والتعصب بشكل جعلهم لا يفكرون في امكان قيام رجال الريف - بقوة سواعدهم وقوة ايمانهم - بتحقيق مثل هذه الانتصارات . ولم يتسلم الأمير عبد الكريم أي معونة خارجية في أثناء قيامه بجهاده التحرري ، وأعلن ذلك في بلاغ رسمي أمام مندوب جريدة التايمز في لندن في يوم ١٢ من أكتوبر سنة ١٩٢٤ . وهو البلاغ الذي نشر في هذه

نهاية العام ، واحتلوا دار داريوس في أعلى وادي القرط في ١٠ من يناير سنة ١٩٢٢ ، ولكن بعد أن بلغت قواتهم في شمال المغرب ١٥٠.٠٠٠ مقاتل .

وعند هذه المرحلة أوقف الجنرال بيرنجر هجومه المضاد في قطاع مليلة ، وعاد إلى استراتيجيته القديمة ، التي تقضى بالبدء باخضاع القطاع الغربي ، قبل الاستمرار في العمليات في القطاع الشرقي ، قطاع مليلة ، قطاع الأمير عبد الكريم الخطابي . وكان هذا يدل على عجز الجنرال عن الحصول على أي انتصارات أمام الأمير عبد الكريم ورجاله ، ومحاولته البحث عن انتصارات جانبية أخرى ، يصفق لها الرأي العام في اسبانيا ، وقد تساعد على عودة ثقته بالعسكريين الفاشلين .

ولكننا نلاحظ أن موقف الاسبانيين قد ساء حتى في القطاع الغربي ، خاصة وأن الريسولي كان قد أفلت من قبضتهم في الوقت الذي تأهبوا فيه لأسره ، وأن بعض قوات عبد الكريم نفسها قد أخذت في مهاجمة الاسبانيين في هذا القطاع الغربي .

ولقد قامت قوة من رجال الريف ، بقيادة محمد عبد الكريم ، ومجهزة بالدفعية المأسورة من الاسبانيين ، بالهجوم على المواقع الاسبانية الواقعة على خط المواصلات بين تطوان وشفشاون في ٢١ من أكتوبر سنة ١٩٢١ ؛ وأخذ عدد من رجال الريسولي يساعدون أبناء الريف ، وبشكل أعجز الاسبانيين عن سحب هذه الحاميات حتى ١٩ من نوفمبر . . ولم تتم هذه العملية إلا بعد معارك عنيفة ، ومريبة على الاسبانيين . ثم عاد الجنرال بيرنجر إلى استراتيجيته السابقة في سنة ١٩٢٢ وركز قواته ضد الجبال ، ونجح في ١٢ من مايو في الاستيلاء على قصبة الريسولي في تازاروت . ولكنه اضطر إلى الاستقالة حينما شعر أن حكومة مدريد ستضحي به أرضاء للرأي العام ، وخصوصا بعد اتهامه بتوريط الحكومة الاسبانية في شمال المغرب .

وجاء الجنرال برجيت خلفا له ، وغير في الحال سياسته ، بل قلبها رأسا على عقب . فبدأ المفاوضات مع الريسولي حتى يسمح لنفسه بتركيز كل قواته في قطاع مليلة ضد عبد الكريم . . ولقد دامت المفاوضات بين الاسبانيين والريسولي من ٦ من أغسطس حتى ٢٨ من سبتمبر سنة ١٩٢٢ وقبل الريسولي التسليم ، وأن كانت شروط هذا التسليم إقد تركته سيد الموقف . . وجلا الاسبانيون عن تازاروت ، وقبلوا دفع تعويض للريسولي عما أتلفته العمليات الحربية في منطقته ، وقبلوا نقل جميع الضباط والموظفين من الاسبانيين والوطنيين الذين أعلن الريسولي عدم رضائهم عنهم . . وكان ثمنا باهظا دفعه الجنرال برجيت في القطاع الغربي لكي يبدأ عملياته في قطاع مليلة ، ابتداء من الشهر التالي . . ورغم أن الاسبانيين قد تمكنوا من احراز بعض الانتصارات المحلية في هذا القطاع الأخير ؛ إلا أن تقدمهم قد أوقف نهائيا ، وبهزيمة ساحقة في تيزي عزة ، وتشبه هزيمة أنوال ؛ وإن كانت على مقياس أصغر .

ولقد تمكن عبد الكريم من مد نفوذه وسلطته من المنطقة التي تحتلها قبيلته - بنو ورياغل - إلى كل بلاد الريف وغماره . وربما كانت هذه هي أول مرة يشهد فيها التاريخ اتحاد قبائل شمال المغرب تحت حكومة موحدة ، بعد أن اعتادوا محاربة بعضهم بعضا ، وصرف مجهودهم في محاربة جيرانهم . . وأصبحت أجدير هي عاصمة تلك الدولة الجديدة ، التي أنشأها عبد الكريم ؛ وهي قرية صغيرة تبعد ببضعة كيلو مترات عن خليج الحسيمة ، الذي كان الاسبانيون يعسكرون على ساحله أو شاطئه الضيق ، في أسفل الجبال . . ولقد قام أبناء الريف بتحسين عاصمتهم بما أسروه من أيدي الاسبانيين ومن معسكراتهم ، وتمكنت مدفعيتهم من أن تضرب وتفرق السفن الاسبانية وهي تفرغ حمولتها من الذخائر والتموين في الحسيمة ، وذلك ردا على قرار حكومة مدريد بتطبيق

الحصار البحري على سواحل الريف ، والذي صدر في ١٨ من مارس سنة ١٩٢٢ .

ولقد شهد خليج الحسيمة مفاوضات بين مندوبي الاسبانيين وبين الأمير في يناير سنة ١٩٢٣ ، وذلك لاخلاء سبيل من بقى في الأسر من جنودهم بعد معركة أنوال ، وذلك نظير مبلغ ٤ ملايين بسيطة اسبانية ، علاوة على اخلاء سبيل المغاربة نزلاء سجون مليلة وسبتة وتطوان . وكان معظمهم من المسجونين السياسيين .

وشدد الأمير عبد الكريم هجومه على خطوط الاسبانيين طوال صيف سنة ١٩٢٣ . ولقد عرض السكرتير العام للمنطقة الاسبانية ، في ١٥ من يوليو ، على الأمير كتابة استقلالا ذاتيا تحت الحماية الاسبانية وسيادة سلطان المغرب . . فرد عليه الأمير رافضا الاعتراف بالحماية الاسبانية ، ومطالباً بتطبيق مبدأ حق الشعوب في تقرير مصيرها . وحضر أحد الجنرالات الاسبانيين . وهو الجنرال كاسترو جورونا سرا بمقابلة الأمير في أجدير ؛ ولكن هذه الاتصالات لم تؤد الى نتيجة . ووقع انقلاب الجنرال بريمو دي ريفيرا في شهر سبتمبر ، وأصبح على اسبانيا أن تواجه مشكلات شمال المغرب في نفس الوقت الذي تواجه فيه مشكلاتها الداخلية .

ولقد استمر أبناء الريف في مواصلة الضغط على جبهة مليلة ، وبشكل أجبر الماركيز دي استيلا على أن يعلن في خطابه الرسمي ، الذي ألقاه في ٢٦ من يونيو سنة ١٩٢٤ أن الحكومة قد قررت سحب جميع المواقع العسكرية المتقدمة في كلا القطاعين ، والانسحاب حتى الساحل ، ولكن قبل أن ينتهي ذلك الشهر ، كان رجال عبد الكريم يشنون هجوما آخر مفاجئا ، في قطاع آخر ؛ هجوما على المواقع الاسبانية في وادي لاو ، وهو الذي يمر فيه الطريق الموصل بين تطوان وشفشاون ، في القطاع الغربي . . وأخذ رجال عبد الكريم في اغراء الجبالا على الانضمام اليهم . . ورغمما عن ازدياد عدد القوات الاسبانية في هذا القطاع الغربي ،

نتيجة لاستمرار وصول الامدادات اليهم ، وارتفاع عددهم الى مائة ألف جندي ، منهم ستون ألفا على طريق تطوان ، ورغمما عن ذلك فان جبهة وادي لاو قد انكسرت في خلال شهر أغسطس .

وكان الاسبانيون قد اعتمدوا على الريسولي للمحافظة على الهدوء بين قبائل الجبالا ، ولكن نجمه كان قد أخذ في الأفول في الوقت الذي أخذ فيه اسم عبد الكريم يتردد على كل لسان . . وتمكن رجال القبائل من قطع الطريق بين تطوان وشفشاون نهائيا . وحاصروا قوة اسبانية كبيرة بلغت ثلاثة آلاف جندي على مسافة خمسين كيلومترا من قاعدتهم ، كما تمكنوا كذلك من قطع الطريق الموصل بين تطوان وطنجة . . وفي أوائل شهر سبتمبر أخذ رجال الريف يهاجمون الاسبانيين وهم على مسافة لا تبعد أكثر من ثلاثة كيلومترات عن تطوان نفسها ، مقر الحماية الاسبانية .

وكان الماركيز دي استيلا قد زار قطاع تطوان في أثناء الصيف ثم في أثناء الخريف ، وكان يعرف صعوبة العمليات في هذه المنطقة؛ فاضطر الى أن يقرر تنفيذ سياسة الانسحاب الى الساحل ، بمجرد فك حصار حامية شفشاون . وظهر أن نية الحكومة الاسبانية كانت هي تحديد منطقة احتلالها في قطاع مليلة بالأراضي الواقعة في غرب نهر القرط . وفي القطاع الغربي بالمنطقة التي تحيط بطريق طنجة - تطوان ، وعلى ساحل المحيط الأطلسي ، ولكن باستثناء منطقة الجبالا . . وكانت سياسة الانسحاب الى الساحل ، تسمح لعبد الكريم بممارسة سلطات الاستقلال الفعلي . . وراة اسبانيا من جانبها امكانية قبولها لممارسة عبد الكريم لهذا الاستقلال ، ولكن على أساس أن يكون استقلالا ذاتيا ، وخاضعا للاتفاقيات الدولية التي أخضعت المغرب لنظام الحجر الاستعماري ؛ أي أن يعترف عبد الكريم بخضوعه للسلطة الشرعية لسلطان المغرب ، ولسلطة خليفته في تطوان ، ويعترف كذلك باسبانيا كدولة حامية . وأمام هذا الاصرار من جانب الاسبانيين ، أصر الأمير على أنه مستقل

بالفعل ، وأنه من الضروري أن تقوم اسبانيا بدفع تعويضات حرب لسكان الريف والجبالا ، نتيجة لتخريبها بلادهم في مدة الاثنتى عشرة سنة الأخيرة بتلك الحرب الاستعمارية ؛ وعليها أن تدفع كذلك فدية عن الأسرى الاسبانيين ، وأن تسحب كل قواتها الى مستعمرات التاج القديمة ، والى داخل حدودها ، وتترك البلاد وأهلها في سلام .

ولقد تمكن الاسبانيون في ٢٩ من سبتمبر من أن يفكوا حصار شفشاون بعد معارك استمرت مدة عشرة أيام . وأحرز أبناء الريف انتصارات أخرى في بلاد الجبالا . . وعينت الحكومة الاسبانية الماركيز دى استيلا في ١٦ من أكتوبر مندوبا ساميا في منطقة نفوذها ، وقائدا عاما في نفس الوقت ؛ وذلك حتى يتمكن من الاشراف على عملية الانسحاب العامة ، مزودا في ذلك بسلطات من التاج ، وسلطات عسكرية وادارية وقضائية ودبلوماسية . وكان هناك ما يقرب من أربعمائة موقع اسباني منعزل ، يضم كل منهم حامية يتراوح عددها بين عشرة رجال ومائة جندي ، وتضم في مجموعها عشرين ألف جندي . وكان بعض هذه المواقع على قمم الجبال ، وينقصها الماء ، وكانت تعتبر أسيرة لدى القبائل المحيطة بها . ولقد أشار الماركيز نفسه الى خطورة وقوع هذه القوات في أيدي الوطنيين ، وخطورة حصول الوطنيين على الأسلحة والذخائر الموجودة فيها ، وان كان السلاح قد أصبح متوفرا في ذلك الوقت في أيدي رجال الريف .

وكان الجنود الاسبانيون يشترون حريتهم وحق انسحابهم أمام رجال الريف بتسليم أسلحتهم وذخائرهم وبدفع فدية مالية . . ولقد ثبت أن حامية بوحايد التي كانت تتكون من ٣٥٦ رجلا قد سلمت في يوم ١١ من أكتوبر ، وبعد حصار دام ٤٠ يوما ، وبعد أن فشلت كل محاولة لفك حصارها . واحتل المجاهدون مراكز تموينها بالماء . وثبت أن قائد تطوان قد سلم للقوات المحاصرة ،

ومقدما ، عددا من البنادق الجديدة يعادل عدد أسحة الجنود المحاصرين ، حتى يقبلوا رفع الحصار عنهم ، ويتركوهم ينسحبون الى تطوان .

ومع بدء حامية شفشاون في الانسحاب في شهر نوفمبر ، واخلائها لعدد كبير من المواقع ، ووصولها الى مشارف تطوان ، تدعمت القوة الاسبانية في هذه المدينة الأخيرة . ولكن عملية الانسحاب هذه هدمت كل النفوذ الاسباني في المغرب ، وأخذت قبيلة الانجارا ، التي تسكن المثلث الواقع بين تطوان وسبته وطنجة ، تظهر عداءها ثم تعلن ثورتها على الاسبانيين . وقامت في أواخر شهر أكتوبر بالهجوم على القصر الصغير ، واستولت عليه في أوائل شهر ديسمبر . . وهكذا امتدت الثورة الى ما وراء ذلك الخط الذي عزمت اسبانيا على اقامته أمام قوات الريف ، وقبل أن تتمكن من اتمام اقامته . . وواصلت اسبانيا عروضها على عبد الكريم طوال فترة الانسحاب ، ولكن القائد الوطني أصر على ضرورة انسحاب الاسبانيين ودفعهم تعويضات للحرب .

ولقد كلفت هذه العمليات اسبانيا في مدة الستة أشهر الأخيرة من سنة ١٩٢٤ خسائر بلغت ٢١٢٥٠ قتيلًا ومفقودًا وأسيرا . من الضباط والجنود ، وطبقا للعدد الرسمي لوزارة الحربية الاسبانية في مدريد . . وإذا كانت حكومة اسبانيا قد فكرت في خلال النصف الأول من عام ١٩٢٥ في أن تقتصد في الأرواح والأموال والمجهودات ، مستغلة في ذلك عملية انسحابها الى الخط الجديد ، فان آمال اسبانيا قد خابت نتيجة لثورة الانجارا ، فيما وراء هذا الخط ؛ واضطرت اسبانيا الى الاستمرار في العمليات الحربية التي كانت تكلفها الكثير .

ولم تحاول اسبانيا احتلال منطقة الانجارا بشكل دائم ، بل اكتفت باعادة فتح الطريق بين طنجة وتطوان ، حتى تستخدمه كمر بين المنطقتين التي يسيطر عليهما الثوار ؛ منطقة الانجارا في

الشمال ، ومنطقة الجبالا في الجنوب .. وطوقت القوات الاسبانية الاراضي المحيطة بمنطقة طنجة الدولية ، حتى تمنع القبائل الثائرة من بيع محصولاتها فيها ، وشراء حاجياتها الضرورية منها .. وأتمت اسبانيا حصار الانجارا في آخر شهر يناير سنة ١٩٢٥ ثم قامت باعادة احتلال القصر الصغير في آخر مارس . ولكن اسبانيا قصرت عملياتها فيما بعد ذلك على ضرب القرى بقنابل الطائرات ، وتعذيب الأهالي المغاربة الذين كانوا يحاولون التسلل ليلا بين الاستحكامات الاسبانية لتسويق بعض سلعهم في طنجة .. وكانوا من الفقراء ، وكثير منهم من النساء ، يسيرون مسافات طويلة ، ويحملون على ظهورهم بعض الحطب أو الفحم أو بعض قطع من الجلود أو بعض الحبوب لبيعها والتعيش منها . ولم يتورع الاسبانيون من محاربة هؤلاء المغاربة ، ولم يتراجعوا أو يترددوا في تعذيب النساء والضعفاء . ولقد تمكنت اسبانيا باقتصارها على هذا التكتيك الجديد من أن تقلل عدد جنودها في شمال افريقية ، ولكنها فقدت في نفس الوقت كل أمل في الوصول الى تسوية مع الوطنيين . ذلك أن هذا التكتيك الجديد قد أثار رجال القبائل ، خاصة وأن اسبانيا كانت تطبقه على العناصر غير المحاربة ؛ هذا علاوة على أنه قد هدد باثارة مشكلات دبلوماسية ، نتيجة لاعتداء اسبانيا المتكرر على منطقة طنجة الدولية ، وبدعوى مطاردتها للثوار . وزاد الطين بلة أن اسبانيا كانت ترفض دائما مرور الأدوية وأدوات الاسعاف الطبية للجرحى من رجال الريف ، رغم أن قوات عبد الكريم كانت تحتاج الى الأدوية لنفسها ، وحتى لمعالجة الأسرى الأوربيين .

ولقد استمر عبد الكريم في تدعيم سلطته ، ومد نطاق دولته الثورية في منطقة الجبالا .. حقيقة أن الأمير عبد الكريم قد لقي بعض المقاومة من بعض سكان منطقة الجبالا في يناير سنة ١٩٢٥ ، وكانت هذه القوى المضادة في غالبيتها من ملاك الأراضي وأصحاب

القطعان ؛ ولكن الأمير لم يتراجع عن استخدام الشدة ضدهم ، وصادر أراضي ومواشي من تعامل مع الاسبانيين من بينهم .. وانتهت هذه الحركة التي بدأت في شفشاون ، بالقاء القبض على الرئيسولى في قصبته في تازاروت ، ونقله الى أجدير حيث مات في شهر أبريل .

وهكذا أصبح عبد الكريم الخطابي رئيسا لدولة ، وقائدا لثوار ، وزعيما لشعب ، وبدون أى منافس . وأخذت الأنظار تتجه اليه من مشارق العالم العربى ؛ كما أخذ الكثير من الوطنيين ينظرون اليه على أنه أمل العالم العربى في الكفاح ضد الاستعمار ؛ وأصبحت أنباء عملياته - رغم بعدها عن المشرق - تصل اليه ، وتزيد الحماس في قلوب الوطنيين .

ولقد أخذ محمد عبد الكريم ، أخو الأمير ، وقائد قوات الريف والجبالا ، في شرح سياسة أخيه ، والشروط التي يقبلون بها انهاء الحرب . وذكر أن هدف الحرب الوحيد هو تحرير الريف والجبالا ، وأنه ما أن تنتهى هذه الحرب حتى يكرس رجال القبائل مجهوداتهم للإصلاح الداخلى والتعمير ، وأنهم يوافقون على ترك سبته ومليلة في أيدي الاسبانيين ، ولكنهم قد يغيرون موقفهم اذا ما واصلت حكومة مدريد تشددتها .. وشرح الأمير أنه لا يوجد بين صفوف المجاهدين الثوار أى وكلاء بلشفيك ، أو ضباط أجانب ، وأنهم يرغبون في أن يعيشوا في سلام مع كل جيرانهم ، ولا يفكرون في الهجوم على منطقة طنجة ، أو التدخل في نظامها الدولى ، وأن الريف لا يحمل أية ضغينة لآى من الدول الأوربية ، ما دامت تعترف بوضعه وباستقلاله .. وشرح الأمير أن أبناء الريف قد أثبتوا منذ سنوات قدرتهم على حكم أنفسهم بأنفسهم ، وبطريقة عجزت بعض الدول الأوربية عن الوصول اليها ، وعن مجابهتها .. أنهم مسلمون ، ولكنهم متحررون ، ويمكنهم أن

يوفقوا بين تعاليم الاسلام وبين التقدم العلمى الحديث فى بناء دولتهم الوطنية .

ورغم أن اسبانيا لم تكن مستعدة ، ونتيجة لغورها ، لقبول شروط الأحرار ، إلا أن قيادتها بدأت فى المفاوضة مع رجال الريف فى شهر مايو سنة ١٩٢٥ ، وللوصول الى هدنة ، وعلى أساس وقف القتال ، وعدم تحريك القوات والحاميات الاسبانية من مواقعها ، وفتح أسواق بالقرب من الخطوط الاسبانية . . ولكن هذه المفاوضات انقطعت قبل نهاية هذا الشهر ، ونتيجة لدخول اسبانيا طرفا فى ذلك الصراع الذى نشأ فى ذلك الوقت بين فرنسا وأبطال الريف .

الفصل السابع

تضارب المصالح مع فرنسا

كانت النتائج التى وصلت اليها التجربة الاسبانية فى شمال المغرب تختلف عن تلك التى تمكن الفرنسيون من الوصول اليها فى منطقة حمايتهم ، بالرغم من أن كلتا الدولتين قد استخدمت وسائل الشدة والعنف مع الأهالى .

كان الفرنسيون قد استخدموا كل ما يمكنهم استخدامه من وسائل القمع والشدة ، وبدرجة فاقت تلك التى عمل بها الاسبانيون ، وتمكنوا بهذه الطريقة من السيطرة على أقاليم المغرب الواحد بعد الآخر ، وقضوا فيها على المقاومة ، وأخذوا فى تطبيق النظام ، وفى تسيير دولاى الأعمال ، بشكل أثار إعجاب بعض السطحيين ، الذين بدأوا يصفقون لسياسة الماريشال ليوتى ، ويشيدون بمهارته فى إدارة منطقتهم . ولقد ظل هؤلاء السطحيون يصفقون للنظام الاستعمارى الفرنسى فى المغرب الأقصى حتى سنة ١٩٢٥ ، وهى السنة التى اصطدمت فيها فرنسا بقوات جمهورية الريف ، وظهرت تجربتها فى شمال افريقية على حقيقتها ، استعمارية أمام الجميع . ولقد أخذ هذا الصراع بين فرنسا والريف شكلا عسكريا ، وشكلا سياسيا ، ونتيجة لتضارب المصالح ، وبوضوح ، بين الاتجاه الاستعمارى وحركات الكفاح الوطنى . وكان رجال الاستعمار الفرنسيون واثقين من أن فشل قواتهم فى رد هجوم أبناء الريف الى خارج منطقتهم سيكون بداية لانتهاء نظام الحكم الاستعمارى الفرنسى فى كل شمال افريقية . وأنه سيؤثر على

بقائهم في تونس ، وسيؤثر حتى على بقائهم في الجزائر نفسها ،
التي كانوا يعتبرونها في ذلك الوقت أرضا فرنسية .

وكانت فرنسا قد سارت على سياسة خاصة في منطقة حمايتها
في المغرب الأقصى ، وحاولت أن تفرق بين عناصر الأمة التي
وحد الله بينها . ووجدت فرنسا أن المغرب يتكون من عناصر
عربية ، وعناصر مسلمة وبربرية . وإذا كان العرب يسكنون
السهول فإن البربر كانوا يعيشون على المرتفعات وفوق الجبال .
واستندت فرنسا إلى هذا الاختلاف العنصري لكي تفيّد من
الموقف ، وتفرق بين الأهالي ، رغم ادعائها العمل على توحيد كل
بلدان المغرب العربي تحت إدارة أوربية موحدة .

وكان رجال الريف في المنطقة الإسبانية من المغرب يتكونون من
عناصر تسمى الأمازيغ ، ويشبهون غيرهم من قبائل رجال الأطلسي
الذين احتفظوا بلغاتهم الأصلية ، ولهجاتهم المحلية ، إلى جانب
العربية التي اكتسبوها وأحسنوها واعتزوا بأنها لغة القرآن .

وكانت الرغبة في المحافظة على التقاليد ، واحترام الآباء
والأجداد ، هي التي دفعت سكان الجبال إلى الاحتفاظ بلهجات
أجدادهم ، وإن كانت هذه التقاليد لا تؤثر في عقولهم لحريتهم
السياسية ، ولا في طبيعتهم الاستقلالية ، بل كانت تدعمها ؛
إذ أنها كانت قد أصبحت من الصفات الأساسية لسكان هذه
المناطق .

واعتقدت فرنسا أنه يمكنها الادعاء بتأخر مستوى سكان
الجبال ، وتفشي الجهل فيما بينهم لكي تحاول كسبهم إلى
جانبها ، بدعوى دفاعها عنهم ضد العرب . ونسيت فرنسا
أو تناست أن سكان الجبال كان غالبيتهم يعملون في الرعي ،
ويتنقلون على المرتفعات ، وأن سكان الوديان كانوا قد توطنوا ،
وأخذوا يعملون في الزراعة ، نسيت فرنسا أو تناست أن تغير
وسائل الإنتاج هو العامل الأساسي في تطوير المجتمع الانساني ،

وأن هذه الفروق الموجودة بين أبناء المغرب كانت فروقا مصطنعة ؛
إذ أن شخصيتهم العامة كانت تتمثل في الاسلام وتوحيد الله .
وعلى أي حال فإن فرنسا قد ضخمت من عوامل الفرقة المصطنعة ،
حتى تتمكن من الانفراد بجزء هام من الشعب ، تقطع صلته ببقية
الأمة ، وتطبق عليه القوانين الفرنسية ، وتعلمه اللغة الفرنسية ،
وتشجع بعثات التبشير المسيحية في مناطقه ؛ كما فعلت في بعض
مناطق الجزائر مع الآباء البيض ، وإن كان ذلك على نطاق ضيق .
ولقد وصل الأمر ببعض العناصر الفرنسية المتطرفة إلى حد التبجح
حين ذكروا أن الاسلام والعروبة قد فشلا في خلال اثني عشر قرنا
من الزمان في غزو قلوب وعقول سكان الجبال أو البربر ، وأن
اسلامهم ليس أكثر عمقا من جلدهم . وسأيرت فرنسا هذا الاتجاه
حين قررت سياستها التي أعلنت فيها أنها ستحافظ على نظام
الحضارة الذي وجدته عند وصولها إلى المناطق التي اعتنقت
الاسلام وتكلمت العربية ، ولكنها لن تساعد الاسلام على الانتشار ،
بعد ما دفعته من دماء وأموال ، بين رجال يمكنهم أن يصبحوا
فرنسيين .

وتمكن الجنرال ليوتي من اجبار الحكومة المغربية في ١١ سبتمبر
سنة ١٩١٤ على إصدار مرسوم أو ظهير يساير هذا
الاتجاه ، ويعلن أن المناطق التي تسودها عادات البربر وتقاليدهم
ستظل محكومة بهذه العادات وتلك التقاليد . وكانت القوات
الفرنسية قد وصلت منذ أشهر إلى المناطق الجبلية ، وصعب
عليها أمر التوغل فيها . وكانت هذه السياسة تعنى رفض تطبيق
النظم الاسلامية على سكان الجبال ، خوفا من أن يؤدي مثل هذا
التطبيق من جانب دولة حديثة إلى زيادة انتشار اللغة العربية ،
وانصهار المغاربة جميعا سويا . ولقد أسرع الفرنسيون بتنظيم
ادارات خاصة في كل منطقة من مناطق الجبال تخضع لهم ، وأنشأوا
فيها مجالس محلية ، وطبقوا فيها العرف والتقاليد في التقاضي ،
وأنشأوا عددا من المدارس لتعليم أبناء سكان الجبال ، ويدرس

فيها عدد من الفرنسيين وبعض من القبائليين من الجزائر . وأصبحت اللغات الرسمية في هذه المناطق هي اللغة الفرنسية واللهجات البربرية ، رغم اختلاف لهجة القبائليين الجزائريين عن لهجات أبناء الجبال في المغرب الأقصى ، سواء أكان ذلك مع الشاوح في الجنوب ، أم مع سكان الأطلس المتوسط ، أم مع الريفيين والأمازيغ في الشمال . والمهم هو أن اللغة العربية قد أبعدت عن هذه المدارس في نفس الوقت الذي أبعده فيه الفرنسيون تطبيق الشريعة الإسلامية عن هذه المناطق كذلك . وهدفت فرنسا من وراء هذه السياسة إلى خلق بعض الجزر البربرية . وسط ذلك المحيط العربي الإسلامي في شمال إفريقيا ، ويمكن لرجال التبشير أن يأخذوا في النشاط داخل هذه الجزر . ولكن ظهور الأمير عبد الكريم قلب هذه السياسة رأسا على عقب ، ووجدت فرنسا فيه قائدا وزعيما يعتز باسلامه ولا يخضع للاستعمار ، ويكافحه ويعمل على القضاء عليه ، ويبيده .

وجاءت العوامل العسكرية والاستراتيجية لكي تظهر التضارب بين مصالح فرنسا ومصالح القوة التحررية النامية في شمال المغرب ، وخاصة في سنة ١٩٢٤ . وكان الفرنسيون قد أتموا في أوائل هذا العام احتلال إقليم وزان ، الواقع في السهول المطلة على المحيط الأطلسي ، والمجاور للحد الغربي للمنطقة الإسبانية . أما في الشرق فإنهم كانوا يسيطرون على ممر تازا الذي كان يفصل قبائل الأطلس ، والتي لم تكن قد خضعت بعد للفرنسيين ، عن قبائل الريف الثائرة . وكان الفرنسيون قد زادوا من نشاطهم في الثلاث السنوات الأخيرة لإكمال احتلال منطقة نفوذهم المغربية ؛ ولكنهم لم يكونوا قد وصلوا بعد إلى منطقة أعالي وادي الورغة ، وهي المنطقة الهامة التي تقع بين وزان وتازا ، وإلى الشمال من فاس . ولقد زاد من أهمية هذه المنطقة الأخيرة في هذه الفترة أن الحدود لم تكن قد رسمت بعد بشكل نهائي بين المنطقتين الفرنسية والإسبانية هناك . ونفذ الفرنسيون ما يخصهم من خطة احتلال منطقتهم ،

بعد أن اتفقوا مع القيادة الإسبانية على أن تتقدم قوات كل منهما - من الجنوب ومن الشمال - لاحتلال تلك المنطقة . وتقدم الفرنسيون في شهر مايو سنة ١٩٢٤ وعبروا أعالي نهر الورغة دون أن يلقوا مقاومة شديدة . وأسرعوا بتنظيم هذه المنطقة وتحصينها ضد أي هجوم قد يأتي من الشمال . كما أنهم قد تمكنوا من أن يصدوا حركة حاولت أن تقوم بها إحدى كتائب جمهورية الريف من أعالي وادي اللب لتطويق هذه المنطقة . وثبت أن فرنسا كانت تبذل مجهوداتها لاحتلال كل المنطقة الخاضعة لنفوذها ، وحسب خطة تقسيم الأراضي ورسم الحدود بين المنطقتين الشمالية والجنوبية ، وفي الوقت الذي كان عبد الكريم يعمل فيه على تدعيم استقلال الوطنيين ، وفي كل من المنطقتين . ذلك أن الأمير عبد الكريم الخطابي كان لا يعترف بوجود مثل هذا الخط الذي كان يمر وسط أراضي القبيلة الواحدة ، والذي كان يقسم بين رجالها . ولذلك فإن تضارب المصالح بين فرنسا وعبد الكريم قد أصبح واضحا ظاهرا .

وزاد الطين بلة في ذلك الوقت اعلان الماركيز دي استيلا قراره بسحب جميع المواقع الإسبانية من الداخل صوب الساحل . وحينما تقدمت القوات الفرنسية شمالا لم تتصل بأية قوات إسبانية ، بل وجدت نفسها في مواجهة قوى الثوار من أبناء الريف ، وتمكن الثوار في عمليات كثيرة من اذاقة مرارة الهزيمة للقوات الفرنسية . وأصبحت الجبهة الشمالية للقوات الفرنسية مكشوفة . وسرت اشاعات عديدة بأن فرنسا ستواصل هجومها شمالا ، داخل المنطقة الإسبانية ، التي أخلى داخلها من الحاميات . ولقد اضطر المارشال ليوتي إلى أن ينفي رسميا وجود أية نية لدى حكومته للتوسع في المنطقة الإسبانية ؛ وأعلن أنه كان يأمل دائما في العمل في وفاق تام مع الأسبانيين ، ولكن تغيير الأسبانيين المستمر لسياستهم يصعب عليه العمل معهم . وشرح أن العمليات الفرنسية في شمال الورغة كانت تقع طبقا لخطة مشتركة ، وأشار إلى فشل

الاسبانيين في القيام بتنفيذ ما يخصهم من هذه الخطة المشتركة ، وتأسف على قرارهم بالانسحاب صوب الساحل . ولكن الماريشال ليوتى ادعى أن أبناء الريف كانوا يهاجمون المنطقة الفرنسية ، وأن الفرنسيين كانوا لا يقدرّون على الدخول الى المنطقة الاسبانية لمعاقبتهم . وأشار الى أن فشل الاسبانيين في اخضاع منطقتهم يزيد من الاعباء الملقاة على عاتق فرنسا في منطقتها . ولسنا نعرف تماما ما اذا كان الماريشال يرغب في ذلك الوقت في التدخل في المنطقة الشمالية ، أو الافادة من فشل الاسبانيين أمام ثوار الريف . ولكن مما لا شك فيه أن المقيم الفرنسي العام في المغرب كان يعمل - بهذه التصريحات - على تهيئة الرأي العام لامكانيات القيام بعمليات هجومية في الشمال ، ويحتفظ لنفسه بخط الرجعة في حالة قيامه بمثل هذه العمليات ، حتى وان كانت تصريحاته هي مجرد عمليات « جس نبض » لمعرفة رد الفعل في كل من اسبانيا وانجلترا ، والتي كان يهمها عدم وصول القوات الفرنسية الى موانئ المغرب الشمالية ، والقريبة من جبل طارق .

ولقد زادت الصعوبات أمام الاسبانيين مع اشتداد هجمات المغاربة عليهم ، فقرر الفرنسيون انشاء خط دفاعي ثابت ، للدفاع عن منطقتهم ، ولكي يمنعوا به هجوم أبناء الريف ، وتوغلهم في منطقة النفوذ الفرنسية . وتقدم الفرنسيون في أوائل شهر سبتمبر سنة ١٩٢٤ في اتجاهين : الأول في اتجاه شمال الورغة ، والثاني في الركن الشمالي الشرقي للمنطقة الاسبانية . وطلب الماريشال ليوتى الى فرنسا في شهر أكتوبر الاسراع في ارسال الامدادات اليه، تلك الامدادات التي كانت لازمة لتحسين المناطق التي احتلها في شمال الورغة ؛ ثم أعلن ليوتى أن أهالي الريف يواصلون اعتداءهم على الأراضي التي لم يتم احتلالها بعد من المنطقة الفرنسية ، وأعلن أنهم يعملون على اغراء القبائل فيها على اعلان الثورة ، وعلى الهجوم على الفرنسيين . ولقد اتخذ الماريشال هذه الادعاءات أساسا يستند اليه ، ولكي يعلن أن فرنسا قد تقرر الهجوم على المنطقة

الشمالية ، ومطاردة أهل الريف ، حتى في داخل الحدود الاسبانية . وذكر الماريشال أن الحكومة الفرنسية تعتبر أن الاسبانيين ملزمون بإدارة منطقتهم ، وبالعامل على استتباب الأمن والنظام فيها ، وأن فشلهم في تنفيذ ذلك يعتبر مخالفا لتعهداتهم الدولية ، ويضع الأقاليم الشمالية من منطقة الحماية الفرنسية في موضع صعب ، نتيجة لحالة الفوضى التامة الموجودة في الناحية الأخرى من الحدود . ولم ينس الماريشال أن يذكر أن العالم الاسلامي بأكمله كان يرقب الحرب الدائرة رحاها في منطقة الحماية الاسبانية بكل اهتمام ؛ وأشار الى أن الثورة المعلنة هناك كانت تهدد نفوذ كل الدول الأوربية ذات المصالح الاستعمارية في البلاد الاسلامية ، وهي تهدد فرنسا في شمال افريقية بأكملها ، وتهدد بريطانيا في ممتلكاتها الاسلامية ، وحتى في الهند .

لقد فسرت فرنسا المادة الأولى من اتفاقيتها مع اسبانيا في ٢٧ نوفمبر سنة ١٩١٢ على أنها ملزمة ، في الوقت الذي نظرت فيه حكومة مدريد الى هذه المادة على أنها مجرد حق لها ، ولها مطلق الحرية في تطبيق نص هذه المادة أو عدم تطبيقه ، وبالصورة التي تحلو لها ، وحسب امكانياتها . ولقد قامت الحكومة الفرنسية بطلب توضيحات وتفسيرات من حكومة مدريد حول نياتها المقبلة تجاه المناطق التي يجري سحب القوات الملكية منها ، وحتى تتمكن الدولتان الاستعماريتان من توفيق الجهود ، والتعاون معا أمام الصدمات التي أصابت النفوذ الاستعماري في هذه المنطقة الهامة من العالم .

ولكن اذا كانت هذه هي الطريقة التي كانت الدول الاستعمارية تحاول بها معالجة الموضوع ، فقد كان للقوى الوطنية كلمة حق تقولها في تقرير مصيرها ومصير بلادها . ولقد صمم الأمير عبد الكريم الخطابي على ضرورة تحرير المناطق التي قامت فرنسا باحتلالها في خلال سنة ١٩٢٤ ، وبقوة السلاح . وظهر بذلك

التضارب بين المصالح ، والتضارب بين اتجاهات القوى ، الوطنية والاستعمارية ، في المنطقة . كما وضحت صعوبة التفاهم بين فرنسا ورجال الريف ، وصعوبة المحافظة على السلم بينهما . ولقد كان من الصعب على كل من الطرفين ، الوطنى والاستعمارى ، قبول أنصاف الحلول ، خاصة وأن فرنسا لم تكن لتقبل ترك عبد الكريم الخطابى يستمر فى تحرير هذا الركن الهام من العالم ، ويهدد نفوذها فى كل شمال افريقية . وكان هذا يستتبع وقوع الاصطدام ، وبشكل حتمى ، بين المعسكرين .

ورغم كل ذلك فلقد حاول الأمير عبد الكريم الخطابى أن يفتح باب المفاوضات مع الفرنسيين . وأرسل أخاه الأمير محمد الخطابى الى باريس . ولقد اتصل هذا الأمير ببوانكاريه ، وبفسيره من الشخصيات الفرنسية ، وحاول أن يصل معهم الى تفاهم على الخطوط العامة . ولقد اعترف بانثيلى بهذه الاتصالات ، رغم أن بوانكاريه قد أنكرها . وصرح أرستيد بريان ، وزير خارجية فرنسا فى ذلك الوقت ، بأن موضوع هذه المباحثات لم يسجل فى أية سجلات رسمية . والواقع أن فرنسا قد رفضت اعطاء صيغة رسمية لهذه المباحثات ، حتى لا تعتبر هذه المباحثات اعترافاً دولياً بجمهورية الريف ، وحتى لا يؤثر ذلك على سلطة سلطان المغرب وحقوقه الاقليمية ، وحتى لا يؤدي ذلك الى وقعة بين فرنسا واسبانيا . وبعد مباحثات باريس أحال الفرنسيون الوفد المغربى الى المارشال ليوتى ، للتفاهم معه فى فاس أو الرباط . ولقد اتفق كل من رجال الريف والفرنسيين على ضرورة وصول مندوب من طرف الأمير عبد الكريم الخطابى الى فاس ، وعلى حضوره ومقابلته لمدير المخابرات العسكرية فى المغرب فى ذلك الوقت ، وبعد أن قامت فرنسا بعملياتها العسكرية فى منطقة وادى الورغة . ورغم أن السلطات الفرنسية فى المغرب لم تعترف رسمياً بجمهورية الريف ، الا أنها بحثت مع مندوبى هذه الجمهورية أسماء القبائل التى تعتبر داخلة فى هذا الجانب أو ذاك من الخط ؛ وأكدت

للمندوبين الآتين من الشمال أنها لا تبنت النية لتعدي خط الحدود . وعلى أية حال فإن هذه السلطات قد تعرضت لذكر قبائل بنى سروال ، وذكرت أنهم يدخلون داخل منطقة النفوذ أو الحماية الفرنسية ، وذكرت أنها قد وعدت هذه القبائل بمساعدتها ، حتى تتمكن من مقاومة فرض الأمير عبد الكريم لسيطرته عليها .

والواقع أن موقف الحكومة الفرنسية فى باريس كان يتلخص فى ضرورة عدم التراجع عما حصلت عليه فى المغرب الأقصى ، وفى عدم القيام بأى عمل قد يسيء الى العلاقات الودية القائمة مع اسبانيا . أما موقف السلطات الفرنسية فى المغرب الأقصى فكان يتلخص فى محاولة مد النفوذ الفرنسى الى أقصى درجة ممكنة ، والعمل على التعاون مع السلطات الاسبانية على منع زيادة نفوذ جمهورية الريف ، واتساع رقعتها . ولقد وجد الأمير عبد الكريم الخطابى فى هذه المواقف نية غير ودية ، تعمل على تحدى أبسط مبادئ الحرية ، التى لا يدين الا بها . ولم يتراجع الأمير عبد الكريم ؛ وقبل أن يسوى نزاعه مع اسبانيا ، أخذ فى تحدى عدو جديد ، قوى ومنظم . وأشعرته انتصاراته على اسبانيا بأن فى وسعه ، ان تطلب الأمر ، أن يقف كذلك فى وجه فرنسا ، رغم أنها كانت أكبر دولة عظمى حربية باقية فى العالم الغربى فى ذلك الوقت . ولقد كان الصدام ، وكان لعبد الكريم الخطابى فيه أسباب واقعية ، وحجج منطقية ، تدفعه الى النزول اليه .

الفصل الثامن

الزحف صوب الجنوب

كان معنى تشبث فرنسا باستمرار احتلالها لأعلى نهر الوردية يجبر الأمير عبد الكريم الخطابي على محاربتها لأسباب اقتصادية وأسباب سياسية لها قيمتها . ذلك أن وادي الوردية كان هو المورد الأساسي للفلال لعدد كبير من أهل الريف ، خاصة وأن اقليمهم كان فقيرا ، وكانت القبائل التي تسكن في أعاليه من مجموعة قبائل الجبالا ، وكانت الجماعات الشمالية منها قد قبلت الانضمام الى دولة عبد الكريم ، خاصة وأنه قد عمل على تحريرهم من حكم الاسبان . وكان الأمير مضطرا الى توحيد كل منطقة الوردية تحت ادارة واحدة ، خاصة وان عجزه عن تحرير الجزء الجنوبي منها كان يضعف من هيئته أمام الأهالي . وكانت هذه المنطقة تمتاز كذلك بسكنى عدد من أهالي ورجال بنوورياغل فيها ، وهم أبناء قبيلة عبد الكريم الخطابي . وعلى هذا الأساس يمكننا أن نقول بأن مسألة النفوذ الفعلي على هذه المنطقة كان أمرا هاما بالنسبة لقائد الريف ، هذا علاوة على أهمية القمح اللازم لتأمينه . وكان معنى انسحاب اسبانيا من داخل الريف هو وقوف عبد الكريم وجها لوجه أمام السلطات الفرنسية ، وباعتبار أنهما هما الدولتان أو السلطتان الموجودتان في المغرب الأقصى في ذلك الوقت . وكان من الصعب على هاتين الدولتين أن يعيشا جنبا الى جنب ، نظرا لأنهما كانا يمثلان قوى مختلفة ومتضادة : السيطرة الغريبة من ناحية ، ومحاربة تلك السيطرة بأسلحتها التي تحملها اليد الوطنية من ناحية أخرى . وكانت فرنسا ترى في كل يوم زيادة انضمام رجال

القبائل الى عبد الكريم ، وكان هذا الأمر يشيرها ، ويجعلها تخشى على مركزها في المغرب الأقصى ، وفي كل شمال افريقية .

ولقد أعلن بالنيابة في مجلس النواب يوم ٢٨ مايو سنة ١٩٢٤ حين وقف يدافع عن سياسة الحكومة ضد الأمير عبد الكريم أن على كل فرد قبل أن يفكر في السلم أن يعرف ويعلم جيدا بأن فرنسا تقف مع كل قواتها في المنطقة الواقعة بين الوردية وفاس ، وحتى اذا كان هناك من الفرنسيين من يرغب في التراجع أمام مثل هذه السياسة فعليهم أن يقدروا نتائج موقفهم السلبي . وأكد أن فرنسا كانت مهددة بالاضطرار الى اخلاء فاس ، بل ومهددة أيضا بفقد كل المغرب الأقصى ، والجزائر وتونس كذلك . ولقد أعاد الكرة مرة جديدة في خطاب آخر له في ٣ أغسطس ، وأعلن أن على فرنسا أن تدافع عن مركزها في المغرب الأقصى ، أو أن تقبل فقدانها لكل شمال افريقية ، وفي ظروف مهينة : « سيكون ذلك آخر امبراطوريتنا الاستعمارية ، وآخر استقلالنا الاقتصادي ، الذي هو أمر محال بدون مستعمرات » وسيكون آخر « هبة ونفوذ لفرنسا في العالم » . والحقيقة أن الحرب بين فرنسا وعبد الكريم قد هزت الامبراطورية الفرنسية في كل شمال افريقية . وكانت فترة دقيقة في تاريخ العالم ، تتبع فيها المراقبون السياسيون والخبراء في الشؤون الاستعمارية حركاتها بكل اهتمام .

أما من ناحية الأمير عبد الكريم الخطابي فمما لا شك فيه أنه كان يقدر قيمة الأخطار التي تنتظره من الهجوم صوب الجنوب ، ومن مقابلة قوات الامبراطورية الفرنسية . ولكنه عرف كذلك عدم وجود توازن بين القوات الفرنسية من ناحية ، وبين امكانية انتشار حركة خروج القبائل الواقعة خلف الخطوط الفرنسية على طاعتهم بمجرد نجاحه من ناحية أخرى . وكان عبد الكريم يعرف أن الحروب قد أنهكت قوى فرنسا ؛ وأن أهلها أصبحوا لا يفكرون في حروب جديدة ؛ وأن فرنسا تعيش في ضائقات مالية ؛ وأن الشيوعيين

سيقابلون سياسة الدخول في حرب استعمارية جديدة بمقاومة عنيفة ؛ وأن الاشتراكيين سيقاومون نفس السياسة بقوة أقل ، ولكن بعدد أضخم . كان كل ذلك في صالح الأمير عبد الكريم ، وصالح رجال الريف . وكان على عبد الكريم بعد ذلك أن يعتمد ذلك على المصاعب التي ستواجه فرنسا ، حتى في حالة نجاح قواتها ووصولها الى الخطوط الاسبانية ، التي لم تكن قد تحددت بعد . لقد كانت كل هذه العقبات الجغرافية والدبلوماسية والسياسية والاقتصادية تصعب على فرنسا أمر تعقب رجال عبد الكريم الخطابي في الممرات الجبلية ، وفي الأوكار الواقعة شمالا ، وحتى البحر المتوسط ، وأن تظهر أمام العالم بمظهر المنتصر ، إذ أن كل انتصار جزئي لها في إحدى المعارك كان سيظهرها بمظهر المنهزم العاجز عن القضاء على خصمه ، وأمام كل العالم ، وسيظهر الأمير عبد الكريم في نفس الوقت بأنه قد نجح في تحدى أعظم قوات برية موجودة ، ونجح في الانسحاب برجاله في سلام . ولقد بلغ عدد القوات الفرنسية في المغرب في خريف سنة ١٩٢٤ ما يقرب من ٦٥٠٠٠ جندي ، بما في ذلك جنود المستعمرات ، وجنود الفرقة الأجنبية . ولقد طلب المارشال ليوتي من حكومة باريس في ١١ ديسمبر ارسال الامدادات اللازمة له على مرتين : الأولى في شهر فبراير ، والثانية في أواخر شهر أبريل ؛ ثم عاد وكرر طلبه ملحا بعد عشرة أيام ، وأعلن في نفس الوقت أنه سيتخذ موقفا مدافعا ؛ ونفى كل فكرة ممكنة للدخول في منطقة النفوذ الاسبانية التي شبهها بخلية نحل خطيرة على قواته ، وذكر أن دخول المنطقة الاسبانية سيتعارض مع الاتفاقيات الدولية .

ولكن علينا ألا ننسى أن المادة الثانية من اتفاقية ٢٧ نوفمبر سنة ١٩١٢ كانت اقد وصفت خط الحدود في قطاع الوردغة بأنه يقطع النهر تحت منابه ، تاركا أعالي المياه في المنطقة الاسبانية ، ثم يتبع في اتجاه الغرب خط المرتفعات التي تشرف على الضفة اليمنى (أي الضفة الشمالية) لذلك النهر ، ويتبع الحدود

الشمالية للقبائل التي تسكن الوادي بقدر المستطاع . ولكن هذه الحدود بقيت غير محددة بشكل نهائي ، نظرا لجهل كل من الاسبانيين والفرنسيين على حد سواء بخطوط تقسيم المياه ، وبالحدود القبلية في ذلك القطاع . وكان من السهل قيام مشكلات دبلوماسية بين الدولتين الاستعمارييتين في حالة ما اذا تقدمت احدهما وزحفت قواتها واحتلت المواقع القريبة من تلك المنطقة .

وكان خط تقسيم المياه بين الوردغة والبحر المتوسط واقعا بالفعل في أيدي قبائل الريف ، بينما كان الخط الفرنسي يقطع القمم والمنحدرات المتتالية والمتوازية ، وسفوح الجبال التي تسير بين الشمال والجنوب ، من خط تقسيم المياه الى ذلك النهر . ولذلك فإن الفرنسيين كانوا يواجهون قمم الجبال ، ويمر النهر من خلفهم ؛ ومهما حاولوا انشاء الطرق أو القناطر فقد كان من السهل قطعها ونسفها . أما الدشم ذات المزاغل المتعددة على طول الخط الفرنسي فكان من السهل على أبناء الريف محاصرتها والاستيلاء عليها ، الواحدة بعد الأخرى ، كما حدث في الخط الفرنسي الاسباني من قبل . ولقد كان في وسع رجال الريف بمجرد تسلمهم الى ذلك الخط المحصن أن يعملوا على اثاره القبائل النازية وراء الفرنسيين ، على قوات الاحتلال ، التي ستصبح محاصرة بهذا الشكل . وكان في مقدورهم كذلك أن يواصلوا زحفهم الى ثلاث مواقع استراتيجية في غاية الأهمية : الأول هو موقع وزان في الشمال الغربي ، وهو مركز اسلامي مهم ؛ والثاني هو فاس في الوسط ، وهي عاصمة المغرب التاريخية ومركز العلم والعلماء والطلبة والتجار ؛ والثالث هو تازا في الشرق ، وهي همزة الوصل بين الجزء الذي احتلته فرنسا في المغرب الأقصى وبقيّة مناطق احتلالها في شمال افريقية . وكانت هناك منطقة تقع الى الجنوب من تازا لم يكن الفرنسيون قد نجحوا في اخضاعها بعد ؛ وكانت تليها منطقة أخرى الى الجنوب منها ، تقع في الأطلس المتوسط ، ولم يكن الفرنسيون قد تمكنوا من الوصول اليها بعد . ولقد كان في

وسع رجال الريف - في حالة استيلائهم على تازا - أن يقطعوا خط السكة الحديد الموصول بين كل من الرباط وفاس وبين الجزائر ، بل وأن يثيروا قبائل الأطلس ضد الفرنسيين . ولقد كان الخط الفرنسي الذي يطوق الأطلس في ذلك الوقت يشبه حدوة الفرس المفتوحة الى الجنوب ، وكان مهددا بالانكسار في نقطة هامة منه . كما أن التهديد بفتح جبهة جديدة ضد الفرنسيين في منطقة الأطلس ، وفي نفس الوقت الذي تتقدم فيه قوات الريف صوب الجنوب ، كان يهدد بجعل بقاء الفرنسيين في المغرب ضربا من المستحيل .

وعلاوة على استناد الأمير عبد الكريم الى موقف استراتيجي في صالحه ، اعتمد هذا القائد على مزايا تكتيكية واضحة ؛ ذلك أن الميدان الجديد للعمليات كان يشبه المنطقة الاسبانية الى حد كبير ، اذ أنه كان اقليما قاحلا يفتقر الى الأشجار والغابات ، ولكن تنتشر فيه الشجيرات المليئة بالأشواك ، وتكثر فيه المنحدرات ، وتقل فيه المياه . وكانت هذه هي أصلح أرض يمكن لأبناء الريف أن يحاربوا فيها ، اذ أنهم كانوا قد تدرّبوا في بلادهم على آخر الفنون الحربية الأوربية التي تصلح لتلك الأراضي . وكان في استطاعة مجاهدي الريف أن يتخذوا السواثر بمنتهى السرعة ؛ ورغم تضاريس الأرض فإنهم كانوا جنود هجوم ممتازين ، اذ أنهم قد تمرّنوا على النوم في العراء ، ولم يحملوا من المتاع ما يعوقهم عن الحركة ، واقتصروا على حمل بعض الطعام داخل عباءاتهم ، علاوة على بنادقهم وذخائرتهم . وكان رجال الريف قد زودوا أنفسهم من الاسبانيين بكل ما يلزمهم وأكثر ، من بنادق ومدافع رشاشة وذخائر . ورغمما عن نقص المدفعية ، وعدد وجود قوة جوية لدى رجال الريف ، فإن هذه الأسلحة لم تكن أساسية في هذا الوقت ، وفي مثل هذه الأرض . وكانت قيادة قوات الريف قد استخدمت أجهزة الهاتف ، وأصبحت على اتصال مستمر بوحداتها المتحركة المختلفة ، مما سمح لها بتنفيذ عمليات مشتركة في ميدان واسع ،

مثلا في ذلك مثل الأوربيين ، أن لم تتفوق عليهم . وكانت قيادة المجاهدين قد أنشأت مخازن للأسلحة والذخائر في كل ناحية ، ويمكن استدعاء المقاتلين من رجال القبائل اليها بسرعة ، حيث يسلمون ويرسلون الى الجبهة المعينة لهم ، ويشتركون في المعركة في التو . ولذلك فإن القوات الريفية كانت تعتمد على مرونة واضحة ، وسيولة تامة في التجنيد والتعبئة ، وبشكل يسمح لها بمواجهة أكثر من واجب ، والقيام بتنفيذه في وقت قصير . وكان عدد قوات مجاهدي الريف يختلف تبعا لذلك من يوم الى يوم ، ومن فصل الى فصل . ولكن جمهورية الريف أفادت من ذلك أكثر فائدة ، وخاصة في مسألة دعوة الرجال للخدمة كلما استدعى الأمر ، ثم قيامها بتسريحهم بعد انتهاء العمليات ، لاتمام أشغالهم في الحقل . ولم يحتفظ الأمير الا بعدد بسيط من مجاهدي القبائل بشكل مستديم ، وكانوا يعتبرون جيشا دائما باق تحت السلاح ، وتصرف له الدولة أرزاقه وأقواته . وتراوح عدد رجال هذا الجيش بين ستة آلاف وعشرة آلاف مقاتل ، في الوقت الذي بلغت فيه قوات المجاهدين ما يقرب من ٦٠.٠٠٠ رجل . ولقد اعتمدت قوات الريف على تكتيك خاص وضعه لها الأمير محمد عبد الكريم ، أخو بطر الريف ؛ وكان هذا التكتيك يتلخص في ارسال عدد من المتطوعين الى ما وراء خطوط العدو ، حتى يعملوا على إثارة القبائل ، وكانت هذه العملية تساعد على زيادة عدد المقاتلين باستمرار في أثناء زحفهم . وكانت بعض القبائل التي تقترب العمليات الحربية من أرضها تنضم بكل رجالها الى صفوف المقاتلين ؛ وسرعان ما تعين عليهم القيادة ضابطا ، وضابطا للصف ، حتى تسيطر عليهم في العمليات . وكان زحف الجيش خلف تلك « الستارة » المكونة من رجال القبائل تسمح له بحمايتهم في حالة تهقيرهم ، وتسمح له بمقاومة أى هجوم مضاد يقوم به العدو ، الذي سيجد نفسه - بعد مطاردة بسيطة لرجال القبائل - ملتجئا مع خطوط نظامية تعيد اليه ذكرى الحرب العالمية

في أوروبا . ولقد وجد الماريشال ليوتى نفسه أمام سلاح مشاة ممتاز ، يمكنه أن يقف على الأقل ندا لأى جيش حديث في العالم ، من حيث الشجاعة والضبط والربط ، والأخلاق وحسن المناورات ، والتسديد في إصابة الهدف .

ولقد بدأ رجال الريف هجومهم في ١٣ أبريل سنة ١٩٢٥ وأدى ذلك الى رد فعل قوى في فرنسا . وكانت قوات فرنسا في المغرب الأقصى في ذلك الوقت تبلغ ٧٢٥٠٠ جندي ، لم تكن من بينها الا خمس كتائب فرنسية ، وكانت البقية من الجنود السود ، وجنود شمال افريقية ، وجنود الفرقة الأجنبية التي كان ٤٠٪ من رجالها من الألمان ، ٤٠٪ من الروس البيض في ذلك الوقت . ولقد تباطأ عن ارسال فرنسا للقوات الجديدة التي تطلبها هذا الموقف في المغرب لمدة ثلاثة أشهر ، وتوغل رجال الريف في الخطوط الفرنسية ، وأثاروا القبائل خلفها ، فاضطرت القيادة الى أن تخلى جميع المواقع التي انقطعت صلتها بقواعدها . ولقد ظهر تأزم الأمر بشكل واضح في الفترة الواقعة بين ٢٦ يونيو ، ٦ يوليو في قطاع تازة ، حين حاول رجال الريف أن يصلوا الى المناطق التي لم تكن قد خضعت بعد للفرنسيين ، والتي كانت تقع الى جنوب هذه المدينة ، ويصلوا كذلك الى منطقة الأطلس ، التي لم تكن القوات الفرنسية قد دخلت اليها بعد . حقيقة أن هذه المحاولة من جانب رجال الريف لم تكلل بالنجاح ، وخاصة بعد المعركة الغنيمة التي خاضتها القوات الفرنسية في ذلك الوقت ، وفي هذا الموقع ، ضد أبطال الريف ، ولكن فرنسا اضطرت الى اخلاء تازا تماما من الأهالي الأوربيين ، حتى تتمكن من الحصول على حريتها التامة في العمليات الحربية . ورغم ذلك فقد تمكن أبطال الريف من قطع السكة الحديد في المنطقة الواقعة بين تازا وجرسيف .

ولقد أدت معركة تازا الى هز الرأي العام الفرنسى ، بشكل أجبر الحكومة الفرنسية على أن تغير قيادتها ، وأن تبدأ في التو في

عمليات واسعة النطاق ، خاصة وأنه قد وضع أمام العالم امكان اتحاد رجال الأطلس مع رجال الريف في ثورة عارمة ضد الفرنسيين في المغرب ، وبشكل يقطع بينهم وبين بقية الفرنسيين في شمال افريقية . ولقد عينت فرنسا الجنرال ناولان قائدا عاما لقواتها في المغرب في ٢٦ يونيو ، وظهر أن الماريشال ليوتى سيحتفظ بالاقامة العامة فقط . ثم عادت فرنسا وأرسلت الماريشال بيتان في مهمة خاصة الى المغرب في يوم ١٧ يوليو . وكان على هذين القائدين أن يعملوا معا ، مع الماريشال ليوتى ، على تنظيم القوات الفرنسية . وبمجرد انتهاء هذه المهمة أعلن الجنرال ناولان أنه يستعد للقيام بهجوم مضاد ، مستندا في ذلك الى كل القوات التي وصلته ، وفي تعاون مع الاسبانيين .

وكانت انتصارات الأمير عبد الكريم الخطابي المتتالية على الفرنسيين لمدة ثلاثة أشهر تثير الحماس في جميع أرجاء المغرب ، وجميع أنحاء العالم العربى والإسلامى ، وكانت تثير الحنق في فرنسا نفسها . وكانت فرصة فريدة لكى يشن الحزب الشيوعى الفرنسى هجوما عنيفا على البورجوازية الاستعمارية ، ويظهر تأييده لقضية الريف ، وعلى أساس انشاء جبهة متحدة بين عمال الدول الغربية ، وشعوب الدول غير الأوربية ، والتي كانت جزءا من برنامج المؤتمر الشيوعى العالمى الثالث . وكما أن رجال الريف كانوا يسعون الى اثاره رجال القبائل خلف الجيش الفرنسى ، كان الشيوعيون يحاولون اثاره الشعب الفرنسى ضد الحرب في المغرب ، خاصة وأن الأمة الفرنسية كانت قد ضحت بالكثير مما تمتلكه لكى تواصل صراع الحياة والموت من أجل بلادها في الحرب العالمية الأولى ، ولم تكن ترضى بقبول تضحية جديدة برجالها وأموالها ، وخاصة في حرب استعمارية ، وعلى حدود آخر مستعمراتهم ، وحدود لم تكن قد حددت بعد . وكان الفرنسيون يعرفون أن الحرب المغربية تشبه الحروب الأوربية في عملياتها وفي خسائرها في الأرواح والأموال ، فازدادت الوجوه شحوبا ، والأعصاب توترا . ولقد

قامت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الفرنسي باصدار بيان فضحت فيه اعتداء الحكومة الفرنسية ، وطالبت بالاعتراف بحكومة الريف ، وبالجلاء عن المنطقة الفرنسية في المغرب . وفي المغرب قام الشيوعيون من الفرنسيين ومن الوطنيين بنفس النشاط ، مما أجبر سلطات الحماية على طردهم الى فرنسا . ولكن نساء فرنسا خرجن في مظاهرات كبيرة في اليوم التالي ، وحملن لافتات كتب عليها « لقد أخذتم رجالنا في الحرب العالمية الأولى ، وتريدون قتل أبنائنا في الحرب الاستعمارية !!! » وكانت هتافاتهن تطالب بالسلم ، وبالاعتراف بالحرية للرجال الأحرار . ولم يكن في وسع أحد أن يتهمن بالشيوعية ، بل انها كانت حركة انسانية ، وتستند الى مبادئ الحق والحرية ، والاعتراف بعدم التمكن من تقديم تضحيات جديدة . لقد أصبحت فرنسا منقسمة على نفسها ، وظهر ذلك الانقسام واضحا ، وبشكل يهدد الأمة . واضطرت الحكومة الى أن تؤكد أمام مجلس الأمة أن سياستها هي سياسة استعمارية ، اذ أن مصالحها وطبيعة تكوينها كانت مع هذا المعسكر ، بل كانت في داخله . وكان على أبناء الريف أن يصمدوا كأبطال أمام قوى الاستعمار الفاشم ، حتى ينتصروا أو يسجلوا اسمهم في سجل الحركات الخالدة في التاريخ .

الفصل التاسع

التعاون الفرنسي الاسباني

بدأت فرنسا مفاوضاتها مع اسبانيا منذ شهر يوليو سنة ١٩٢٥ للوصول الى تعاون بين الدولتين الاستعماريتين يقف في وجه الثورة التحررية الوطنية في شمال المغرب . وكان هذا الاتجاه يمثل خطرا كبيرا على الأمير عبد الكريم وعلى دولة الريف ، اذ أنه كان قد عمل حتى ذلك الوقت ضد هاتين الدولتين ، ولكن دون أن يترك لهما فرصة توحيد مجهوداتهما ضده ؛ وكان تكتل القوى الاستعمارية في وجهه يجبره على بذل مجهودات جديدة .

وبدأت هذه المفاوضات بزيارة بعض الشخصيات السياسية الفرنسية لمريد ؛ ومعنى ذلك أن فرنسا هي التي بدأت في أخذ الخطوة الأولى لتنظيم العمليات الحربية ضد الأمير عبد الكريم الخطابي . وكان الرأي العام الاسباني في ذلك الوقت مستعدا لقبول التعاون مع فرنسا ، وخاصة بعد خسائر اسبانيا الكبيرة في منطقة الريف ، وشعور اسبانيا بصعوبة اقيامها بالعمليات الحربية ضد الريف بمفردها بعد هزائمها المتكررة ؛ كما أن الانتصارات التي سجلها الثوار ضد القوات الاستعمارية الفرنسية في الجنوب كانت تساعد على هذا الاتجاه ، وشعر كل من الاسبانيين والفرنسيين بتقارب في الاتجاه ، وضرورة توحيد القوى ، بعد أن ذاقوا مرارة الهزيمة على أيدي الثوار .

وكانت اسبانيا تخشى من نتائج انتصارات رجال عبد الكريم على القوات الفرنسية في المغرب ، وتخشى منها على جنوب بلادها ، وعلى اقليم الأندلس . وكانت اسبانيا لا ترضى من ناحية أخرى

بترك حرية التصرف المطلقة لفرنسا ضد قوات الأمير عبد الكريم ، وخاصة اذا ما نجحت القوات الفرنسية في الدخول الى المنطقة الاسبانية . ولذلك فان حكومة مدريد قد رحبت بمفاتيح فرنسا لها ، ووافقت على عقد مؤتمر اجتمع في يوم ١٧ يونيو ، وظل في عمله حتى يوم ٢٥ يوليو سنة ١٩٢٥ .

وكانت أولى المسائل التي بحثها هذا المؤتمر هي ضرورة منع وصول المواد الحربية والذخائر الى دولة عبد الكريم ، ووقعت الدولتان الأوربيتان على اتفاقية خاصة في ٢٤ يونيو ، تقضى بوضع رقابة بحرية مشتركة على معظم السواحل المغربية ، وتشتمل على جزء كبير من سواحل المنطقة الخاضعة للنفوذ الفرنسي . وسمحت هذه الاتفاقية للسفن الاسبانية الحربية بالالتجاء الى بعض الموانئ الجزائرية ، كما سمحت للسفن الفرنسية بالالتجاء الى بعض الموانئ الاسبانية ، للتمون منها . ولقد أبلغت هذه الاتفاقية الى الدول الأوربية بعد يومين من التوقيع عليها . وتلى ذلك التوقيع على اتفاقية ثانية في يوم ٢١ يوليو لمراقبة التهريب من منطقة طنجة الدولية . ولقد طلبت اسبانيا منحها حق تعقب الثوار الى داخل المنطقة الدولية ، وهددت باعادة فتح مسألة طنجة التي كانت الدول الأوربية اقد أنهتها في شكلها الدبلوماسي في اتفاقية طنجة في ١٨ ديسمبر سنة ١٩٢٣ ؛ الا أن فرنسا نصحت اسبانيا بعدم تغيير اتفاقية طنجة في ذلك الوقت ، حتى لا تثير ضدها مخاوف انجلترا . وكان من نتيجة ذلك أن شاركت انجلترا في عملية مراقبة سواحل المنطقة الدولية ، وأرسلت أربع سفن حربية لذلك ، ولكن دون أن تشارك في عملية الحصار المفروضة على سواحل المنطقتين الفرنسية والاسبانية . وعلى أى حال فقد أدى ذلك الى تعاون بريطانيا مع هاتين الدولتين في تضيق الخناق على قوات الأمير عبد الكريم ، وعلى شعب منطقة الريف .

ولقد كان من المتوقع أن يؤدي التوقيع على هذه الاتفاقيات المتتالية الى منع وصول الامداد الى الأمير عبد الكريم الخطابي ؛

والواقع أن عملية الحصار البحري قد أثرت على الموقف داخل جمهورية الريف ، الا أن الأمير ورجاله في ذلك الوقت لم يكونوا في حاجة كبيرة الى أسلحة وذخائر تأتي لهم من الخارج بعد أن كانوا قد زودوا أنفسهم بكميات كبيرة منها ، حصلوا عليها من اعدائهم المستعمرين في ميدان العمليات . وكان من الصعب على عملية الحصار البحري بمفردها أن تقضى على مقاومة عبد الكريم الخطابي ، اذ أن الموقف كان يتطلب القيام بعمليات حربية كبيرة ضده . ولذلك فان فرنسا واسبانيا قد استمرت في وضع أسس التعاون بين البلدين ضد أحرار الريف ، وعقدتا اتفاقية جديدة تسمح لطائرات كل منهما بالطيران فوق منطقة نفوذ الأخرى ، وتتعب تشكيلات الثوار فيما وراء الحدود بين المنطقتين . واجتمع من أجل ذلك الماركيز دي استيلا مع المارشال بيتان في سبتة ثم في تطوان في أواخر شهر يوليو ، وان كان حق الطيران فوق هذه المنطقة أو تلك ، وحق تعقب الثوار ، قد أثار من جديد مسألة الخط الفعلي لحدود كل من المنطقتين . ورغم أن الفرنسيين كانوا مستعدين في ذلك الوقت لتحديد هذا الخط في الحال ، الا أنهم قبلوا وجهة النظر الاسبانية القائلة بالاكْتفاء باتفاق مبدئي يرسم خطا مؤقتا ، الى أن يتم الاحتلال الفعلي للمنطقة التي يمر فيها هذا الخط . ويمكننا أن نضيف الى كل هذه الاتفاقيات العسكرية اتفاقية أخرى سياسية ، وقع عليها في مدريد في يوم ١١ يوليو ، وتعهدت فيها كل من الدولتين بعدم عقد صالح منفرد مع عبد الكريم ، واتفقتا على الشروط العامة التي لا يمكن قبول أى صلح بدونها . وكانت هذه الاتفاقية السياسية هي أهم ما في هذه الاتفاقيات ، وأشدّها خطرا على الأمير عبد الكريم الخطابي .

ولقد سبق أن ذكرنا أن المفاوضات كانت قد بدأت بين اسبانيا والريف ، وهدفت الى عقد هدنة بين الطرفين ، ولكنها توقفت في الأسبوع الثالث من شهر مايو نتيجة لبدء المباحثات الفرنسية الاسبانية . ولقد فكرت اسبانيا في امكانية الافادة من الجهود

الفرنسية لكي تصفى مشكلة الريف بعمليات حربية ، وبمجهود اضافي بسيط من ناحيتها . وكانت قبائل الجبال توالى الضغط على تطوان ، كما أن قبائل الأنجرا كانت في ثورة معلنة وراء الخطوط الاسبانية ؛ وظهر أن الانسحاب الى الساحل كان عملية فاشلة ، لن تؤدي الى نتيجة مقبولة في مدريد ، ولذلك فان اسبانيا قد قبلت المشاركة في المفاوضات مع فرنسا ، وأعلنت أنها لن تعقد صلحا منفردا مع الريف .

ولقد وقعت محادثات ؛ أو مفاتحات بين اسبانيا والريف من ناحية ، وفرنسا والريف من ناحية أخرى ، في أثناء المفاوضات الفرنسية الاسبانية نفسها ؛ وان كانت هذه المفاتحات أو المحادثات لم تأخذ شكلا رسميا ، ولم تؤدي الى نتيجة ايجابية . وكانت حكومة مدريد قد أرسلت السنيور ايشيفاريتا لمقابلة الأمير عبد الكريم في خليج الحسيمة في ٢٠ يونيو ، أى بعد ثلاثة أيام من بدء المفاوضات الفرنسية الاسبانية . ولم يصطحب هذا السنيور معه أحدا من الضباط الاسبانيين في هذه المهمة ، إذ أنه كان يعلم برفض الأمير مقابلة الرجال العسكريين الاسبانيين ، منذ فترة اعتقاله في مليلة ؛ وكان كذلك قد رفض الاقتراح الاسباني الذي أشار عليه بارسال مندوب عنه يشارك ، مع الوفد الاسباني ، في المفاوضات مع فرنسا . وإذا كانت بعض الصحف قد نظرت الى هذه المقابلة على أنها تهدف الحصول على امتيازات لاستغلال بعض المناجم في اقليم الريف ، فمما لا شك فيه أن هذا السنيور كان مزودا بتعليمات رسمية من الحكومة الاسبانية ، وأنه قد عاد الى مدريد باقتراحات جديدة من الأمير عبد الكريم الخطابى ؛ إذ أن الحكومة الاسبانية قد أعلنت رفضها لهذه الاقتراحات في يوم ١٠ يوليو . ونجد من ناحية أخرى أن الحكومة الفرنسية كانت قد سمحت لليون جابر يلى ، المفتش المدنى لمنطقة تاوريرت ، وهى الواقعة على سكة حديد وجدة - تازا ، بأن يقبل دعوة الأمير عبد الكريم لزيارة أجدير ، عاصمته ، وان كانت قد ذكرت فيما بعد

أنها كانت مجرد عملية مخبرات لمعرفة الأوضاع العامة في دولة الريف ، وأنها قد أمرت جابر يلى بتحاشي كل ما يشبه محادثات الصلح مع دولة الريف . وإذا كان جابر يلى على اتصال دائم في ذلك الوقت مع ادارة المخبرات العسكرية الفرنسية في الرباط ، وبالتالي مع المقيم العام الفرنسى ومع حكومة باريس ، فلا شك أن فرنسا كانت تحاول القيام بدراسة لمعرفة امكانيات الوصول الى اتفاق ، بشكل أو بآخر ، مع عبد الكريم الخطابى ، وفي يوم من الأيام ، كما يظهر من مذكرات هذا المندوب التى نشرت فيما بعد .

ولقد أثار الأمير عبد الكريم الخطابى مسألة شروط الصلح مع الاسبانيين ومع الفرنسيين ومع غيرهم من الانجليز ، وفي نفس الوقت الذى انعقد فيه مؤتمر مدريد . ولقد نشر أحد أصدقائه من الانجليز ، وهو الكابتن كاننج ، في يوم ٢١ يوليو « الخطوط العامة لشروط الصلح بين فرنسا واسبانيا والريف » . وكانت مطالب رجال الريف واضحة ، وتتلخص في ضرورة الاعتراف بالضفة الشمالية لنهر الوردغة على أنها الحد الجنوبى لدولة الريف ، والاعتراف بدخول كل منطقة الجبال داخل حدود هذه الدولة . ويمكن لاسبانيا أن تحتفظ بمجرد قواعدها الأصلية في سبتة ومليلة ، علاوة على مناجم الحديد التى تقع على بعد خمسة كيلومترات الى الجنوب من مليلة . وهكذا نرى أن عبد الكريم الخطابى قد تقدم باقتراحات سياسية لها قيمة دبلوماسية ؛ إذ أنه ربط بينها وبين عروض اقتصادية مغرية ، ودون أن يبتعد كثيرا عن الواقع . وكان الأمير عبد الكريم قد أرسل مندوبا عنه الى طنجة في أوائل شهر يوليو لابلغ مندوبى حكومتى باريس ومدريد استعداداه للمفاوضة من أجل الصلح ؛ ولكن مؤتمر مدريد كان يسير في أعماله ، وتوصل يوم ١٨ يوليو الى التوقيع على المذكرة السياسية التى أصررت على عدم عقد صلح منفرد مع عبد الكريم .

ولقد اشتملت هذه المذكرة السياسية على شروط تسمح

للدولتين الأوربيتين بالاستمرار في العمل ، وحتى النهاية ، في منطقة الريف . وتعهدت فيها الحكومتان بالعمل معا ، على أن يضمنا لقبائل الريف والجبالا درجة كبيرة من الحكم الذاتي ، ولكن في حدود وداخل نطاق المعاهدات الدولية التي تتعلق بالامبراطورية الشريفة ، كما أعلنت اتفاق الحكومتين على فتح باب مفاوضات ، ولكنها مشتركة ، لاعادة السلم ولانشاء نظام جديد في منطقة الريف الشائرة . وأصرت على أن النقاط السياسية في مثل هذه المفاوضات يجب أن تشتمل على ضرورة الافراج عن الأسرى ، واعلان العفو العام عن الأهالي ، ووضع نظام خاص لحكم ادارى محلى ، والاعتراف بحرية التجارة في كل مناطق الريف ، وتطبيق نظم الجمارك وفئات رسومها التي فرضتها المعاهدات عليها ، وكذلك الاستمرار في حظر ومنع دخول الأسلحة النارية والذخائر إليها ، أو الاتجار فيها في تلك المنطقة ، علاوة على تحديد اقطاع ساحلى تقوم اسبانيا باحتلاله بعد وقف العمليات الحربية .

واذا كان الفرنسيون والاسبانيون قد احتفظوا بهذه الشروط سرية ، الا أنها كانت تتعارض مع شروط الأمير عبد الكريم الخطابى، وكان معنى وصولهم الى اتفاق فيما بينهم هو أن أساس هذا الاتفاق يتعارض مع مصلحة الأمير عبد الكريم ، ومصلحة الريف . وظهر أن هاتين الدولتين الاستعماريتين ترغبان في وضع الأمير أمام الأمر الواقع ، وداخل نطاق الاتفاقيات الدولية ، التي كان قد أعلن الثورة ضدها .

ولقد كلفت الحكومة الفرنسية المسيو جابر يللى في تاوريرت في ١٦ يوليو بإبلاغ الأمير بأن في استطاعته ، أن أراد دراسة تلك المذكرة ، أن يحصل على نسخة منها من المندوبين الفرنسيين والاسبانيين في مليلة ، وأن حكومتهما ستزودهم بنسخ منها في يوم ٢٠ ، وأن هؤلاء المندوبين سيمكثون هناك من ٢٤ يوليو حتى ١٤ أغسطس . ولكننا نلاحظ أن الأمير عبد الكريم الخطابى لم

يتصل بهؤلاء المندوبين في مليلة ، بل كتب الى مندوبيه هو في طنجة ، ووجههم الى الاتصال بالسلطات الفرنسية المحلية . ولم يظهر الأمير عبد الكريم رغبة في معرفة الشروط الفرنسية الاسبانية السابقة ، ولكنه طالب من جديد بضرورة الاعتراف باستقلال الريف ، وبأن تجرى المفاوضات في طنجة ، وبصفتها منطقة دولية ، كشرط أساسى للوصول الى السلم . ولقد أرسلت هذه الخطابات في يوم ٢٦ يوليو الى كل من باريس ومدريد ، كما أرسلت محتوياتها برقيا الى الإقامة العامة في الرباط . ولكن حكومة باريس لم تتقدم بأى رد ، ثم أعلنت الكيه دورسيه أنها لم تستلم أية مذكرات من الأمير عبد الكريم الخطابى ، فاتصل مندوبو الأمير بالمركز دى استيلا من طنجة ، ودعاهم برقيا للحضور وزيارته في تطوان . ولقد رحب بهم وتحدث معهم وديا ، وعادوا بنتيجة هذه المحادثات الى أجدير . ولا شك أن المراكز دى استيلا في تطوان قد أبلغ حكومته أن مندوبى الريف قد أصروا على ضرورة الاعتراف باستقلال الريف كشرط أساسى للدخول في مفاوضات الصلح . فلم يكن من الحكومتين الفرنسية والاسبانية إلا أن نشرا نصوص اتفاقيتهما ، وأعلننا أنه لا يمكن الاعتراف باعطاء الاستقلال الريف ، وأن الحرب ستستمر ، وأن المندوبين - الفرنسي والاسباني - اللذين وضعوا تحت تصرف عبد الكريم في مليلة سينسحبان ما دام الأمير قد أهمل وجودهما . وكانت فرنسا في ذلك الوقت أشد حرصا من اسبانيا على الدخول في عمليات حربية كبيرة ، وكانت قد استندت في ذلك الى اقوات عسكرية ضخمة جمعتها من كل بلاد المغرب الكبير ، بعد أن نجحت في أن تنقل مركز عمليات الريف من مدريد الى باريس .

الفصل العاشر

هجوم الاستعمار

كانت عودة الماريشال بيتان الى المغرب الأقصى تدل على قرب بداية الهجوم المضاد على زحف رجال الريف صوب الجنوب ، أو بداية الزحف الاستعماري ضد قوى المكافحين الأحرار . ووصل الماريشال بيتان الى الدار البيضاء في يوم ٢٢ أغسطس سنة ١٩٢٥ ، وبعد أن تباحث مع الماركيز دى استيلا في فندق الملكة كريستينا في الجزيرة الخضراء . ومما لا شك فيه أن الماريشال قد وعد الماركيز في تلك المقابلة بأن تساعد فرنسا اسبانيا الى اكبر درجة ممكنة ضد الأمير عبد الكريم ، وأن ترسل قوات فرنسية لمهاجمته داخل منطقة الحماية الاسبانية نفسها . والواقع أن مثل هذه الوعود كانت تزيد في جوهرها على نصوص الاتفاقيات الفرنسية الاسبانية ؛ ولكن الماريشال لم يقدم هذه الوعود مجانا ، إذ أنه كان محتاجا الى خدمات أخرى تقدمها له اسبانيا الاستعمارية في قطاعات أخرى : ذلك أنه كان يحتاج الى هجوم الاسبانيين وقيامهم بعملية زحف من القصر الصغير ضد شفشاون ، وكان في نفس الوقت مستعدا لارسال حملة من وزان صوب نفس المدينة . وفي حالة ارسال الاسبانيين بعض فرقههم الى خليج الحسيمة ، وزحفهم على أجدير من الجبهة الشرقية بطريق أنوال ، فان الماريشال كان مستعدا للقيام بزحف آخر من الجنوب صوب المنحدرات التي تنزل بعد ذلك متجهة صوب البحر المتوسط .

ولقد أعطى الماريشال هذه الوعود ، وكان مسئولا عن العمليات في منطقة النفوذ الفرنسي ، في المغرب الأقصى . ولكن ما أن وصل

الى الرباط ، وقابل الجنرال ناولان ، المسئول الفعلي عن العمليات ، حتى وجد أن لهذا الجنرال خطة أخرى ، مفيدة عمليا وأقل طموحا من خطة الماريشال نفسه . وكانت خطة الجنرال ناولان تتلخص في القيام بعمليات مستقلة عن العمليات الاسبانية ، وتتلخص في ضرورة تركيز الجهود الفرنسية من أجل استعادة المواقع التي خسرتها فرنسا في شمال وادي الورغة . ومما لا شك فيه أن الماريشال الفرنسي قد وصل مع الجنرال المنفذ الى حل وسط ، ما دامت خطة الجنرال قد نفذت بالإضافة الى الجزء الشرقي من خطة الماريشال .

ولقد كانت الأحوال الجوية عاتقا واضحا للعمليات الحربية في تلك الفترة من فترات السنة ، إذ أن حرارة الجو كانت شديدة ، وكان التهديد بقرب هطول أمطار الخريف يهدد بوقف العمليات الحربية بعد شهر واحد من بدئها .

ولقد استخدم الفرنسيون آخر الفنون الحربية الأوربية في قطاع عملياتهم في وادي نهر الورغة ، وكأنهم كانوا يعملون في خطوط المارن أو على مشارف برلين . لقد بدءوا بضرب القطاع بأكمله بالمدفعية الثقيلة ضربا متصلا في ١٠ سبتمبر ، قبل أن يبدأوا بالهجوم في اليوم التالي . وأخذت القوات الفرنسية تتقدم بطريقة منتظمة ولمسافات صغيرة ، حتى تتمكن من فصل ومحاصرة وتطهير كل مرتفع ، قبل البدء في العمل في المرتفع التالي . ولقد استمرت العمليات في هذا القطاع حتى يوم ٢٧ أكتوبر ، وأقام الجنود مواقع ثابتة لكي يمضوا فيها فصل الشتاء . والواقع أن الفرنسيين كانوا قد وصلوا في هذا الوقت ، وفي نقط كثيرة ، الى الخط الأصلي الذي كانوا يعسكرون فيه قبل هجوم مجاهدي الريف في شهر ابريل ، وفشلوا في نفس الوقت في الوصول الى محاصرة بنوورياغل ، الجنوبيين ، وفي اجبارهم على طلب الخضوع ، رغم أن الجنرال ناولان كان قد أصر على ذلك ، كنقطة أساسية في برنامجه .

ولكن الفرنسيين توصلوا في قطاع تازا الى نجاح أكبر ، خاصة وأنهم قد تمكنوا في هذا القطاع من تنفيذ خطة الماريشال بيتان التي هدفت اقامة تعاون مع الاسبانيين في هذه المنطقة . ذلك أن حملة اسبانية كانت قد تمكنت من النزول على الساحل في نقطة تقع الى الغرب من خليج الحسيمة ، في الفترة الواقعة بين ١١ ، ١٦ سبتمبر ، وبدأت تتوغل ابتداء من ٢ أكتوبر في سهل أجدير ، وذلك في الوقت الذي كان فيه مجاهدو الريف يهددون تطوان نفسها . وأخذت القوة الفرنسية الزاحفة من تازا في التسابق مع العوامل الجوية ، وكانت ترغب في أن تتصل مقدمتها بالاسبانيين الزاحفين من مليلة وأجدير قبل أن تجبر الأحوال الجوية وسقوط الثلج القوات المحاربة على وقف كل عمليات في تلك المنطقة . ولقد اتصل خيالة الفرنسيين المتقدمين من تازا في يوم ٦ أكتوبر ، وفي سيدى الحسن ، بخيالة الاسبانيين المتقدمين من قطاع مليلة ؛ وإن كانت قوات الحملة الاسبانية الزاحفة على طريق أجدير قد تأخرت في زحفها ؛ ثم وصلوا في يوم ١٠ أكتوبر الى سيدى على بورقبة ، التي تقع على بعد أربعين كيلومترا من أجدير ؛ وبعد أن استخدموا في ذلك الطريق الحربى الذي كان عبد الكريم قد قام بإنشائه في الجبال . ولكن الاتصال بين القوات الفرنسية الزاحفة شمالا ، والقوات الاسبانية الزاحفة جنوبا لم يتم . ثم زادت الأمطار ، بدرجة منعت العمليات . واضطرت فرنسا الى سحب فرسانها من سيدى على بورقبة الى سوق السبت بعد أسبوع ، ثم أردفت ذلك بسحب مشاتها الى مرتفعات خط تقسيم المياه بين الريف وحوض الملوية .

ولقد اعترف الماريشال بيتان بأن الأحوال الجوية هي التي منعت من اكمال تنفيذ خطته الأصلية ، وأنه يصعب القيام بأية عمليات عسكرية في ذلك الفصل من فصول السنة . وترأس الماريشال مجلسا عسكريا عاليا في فاس في أول نوفمبر ؛ قبل أن يعود الى فرنسا . أما عبد الكريم فإنه قد اضطر الى نقل عاصمته

ومقر قيادته الى الداخل ، والى الجنوب الغربى من تارجست . ويمكننا أن نقول أن كلا من الطرفين قد فشل ، في هذه المرحلة ، في الوصول الى أهدافه ؛ ذلك أن عبد الكريم كان قد قام بهجوم الربيع ، ونجح في تحطيم خط الدفاع الفرنسى عند الورغة ، ووصل الى أبواب تازا ، ولكنه فشل في أن يدخل فاس منتصرا ، حيث كان في وسعه أن يعلن نفسه سلطانا على المغرب الأقصى ، أو أن يتصل بقبائل الأطلس . ونجد من ناحية أخرى أن الفرنسيين والاسبانيين قد فشلوا - رغم قيامهم بالهجوم الاستعماري المضاد في الخريف - في القضاء على جيش الأمير عبد الكريم ، وفشلوا في قطع اقليمه الى قسمين ، باحتلالهم للخط المار من تازا الى أجدير احتلالا مستديما ؛ كما فشلوا في اغراء القبائل على الخروج عن طاعته . وهكذا لم يؤد الموقف الحربى الى أية نتيجة ايجابية لهذا الجانب أو ذاك . وأثبت الصراع أنه مستمر وطويل وصعب ، وإن كانت مظاهره الخارجية قد ظهرت متأثرة بالموقف الاستراتيجى ، ونسبة القوى العسكرية والاجهاد الحربى للوطنيين ، ودرجة نفوذ كل من الطرفين على رجال القبائل .

ولقد تمكن مجاهدو الريف في أثناء هذه العمليات من أسر تسعة مواقع فرنسية ، وقاموا بنسف موقعين ، وأجبروا الأعداء على اخلاء ٣٢ موقعا ، وذلك في أثناء هجومهم في فصل الربيع . وكان هذا يعنى أن الفرنسيين قد خسروا ٤٣ موقعا من ٦٦ . ولكن الفرنسيين تمكنوا من استعادة ٢١ موقعا وأنشأوا مواقع جديدة ، وخاصة في قطاع تازا ، حيث تمكنوا من احتلال مرتفعات تقسيم المياه التي تشرف على جنوب أجدير . أما مسألة اجبار الحملة الفرنسية لعبد الكريم على اخلاء عاصمته فقد جاءت أمرا عفوا . كما أن قبائل الانجارا في المثلث الواقع بين تطوان وسبتة وطنجة كانت مستمرة في موقفها الثورى التحررى . ونلاحظ من الجانب الآخر ، أى في الجبهة الفرنسية ، أن قبائل بنو سنانين ، وهى التى تتحكم في الضفة الجنوبية ، والتي تحتل المرتفعات

الواقعة بين الورغة واللبن ، وتتحكم في أضعف نقطة في الخطوط الفرنسية ، قد واصلت حربها الى جانب عبد الكريم ، ومع بقية ابطال الريف . ولذلك فان نهاية العمليات في هذا الوقت وبهذا الشكل قد تركت كلا من الجانبين تحت رحمة الآخر من الناحية الاستراتيجية ، وأكثر عن ذى قبل .

أما عن نسبة القوات العسكرية والاجهاد الحربى فاننا نلاحظ أن الأمير عبد الكريم كان قد بدأ هجومه بقوة بلغت ٣٥٠٠٠ مجاهد، منهم ٢٥٠٠٠ من الريف ١٠٠٠٠ من الجبالا . ولكن ما أن انضم اليه رجال القبائل في الأقاليم المحررة من منطقة النفوذ الفرنسى حتى قدر الفرنسيون قواته بمائة ألف مقاتل . ولكنه خسر ما يقرب من عشرين ألف نتيجة لتقهقره في فصل الخريف أمام تقدم القوات الفرنسية واحتلالها لبعض أراضى هذه القبائل . وعلى أية حال فيمكننا أن نقدر قوات الأمير عبد الكريم في نهاية هذه العمليات بستين ألف مقاتل ، أى أنها قد زادت بمقدار ٢٥٠٠٠ رجل .

أما الفرنسيون فانهم أرسلوا امدادات كبيرة الى المغرب بعد أزمة تازا في أوائل شهر يوليو . وكانت هذه الامدادات تتكون من ١١ كتيبة أوربية من الفرنسيين وقوة كبيرة من وحدات المدفعية والوحدات المساعدة ، علاوة على قوات المجندين من الجزائريين والتونسيين والمغاربة ، والذين جندتهم فرنسا في قواتها الاستعمارية . وحينما بدأ الماريشال بيتان والجنرال ناولان هجومهما في ١٠ سبتمبر كانت هناك سبع فرق كاملة تحت قيادتهما : اثنتان في كل قطاع على الجبهة ، وواحدة تمثل القوة الاحتياطية في فاس . ولقد اشتملت هذه الفرق السبع على ١١٤ كتيبة مشاة ، ٢٥ كتيبة فرسان ، ٢٢ سربا من الطائرات تشتمل كل منها على ٦ طائرات . ولقد أعلنت الحكومة الفرنسية أمام لجنة الشؤون المالية في مجلس النواب في باريس يوم ٢١ أكتوبر أن قواتها في المغرب الأقصى قد بلغت ١٥٨٠٠٠ جندي ، لم يكن

منهم سوى ١٢٠٠٠ من الفرنسيين ، ١٢٨٠٠ من أجناس أوربية أخرى في الفرقة الأجنبية ، ١٣٣٠٠٠ من أهالى ومجندى المغرب العربى . وكان هذا يعنى أن أبناء المغرب الذين خدموا في صفوف القوات الفرنسية المحاربة ضد الأمير عبد الكريم قد وصلت نسبتهم في هذه القوات الى ٨٥٪ منها ، وكانوا بذلك أكثر من ضعف قوة الأمير عبد الكريم عند نهاية الحملة . وزادت النسبة تباينا بين القوات الاستعمارية وقوات جمهورية الريف حينما أرسلت فرنسا احدى وعشرين كتيبة جديدة لمحاربة الأمير عبد الكريم ورجاله .

ولقد بلغت خسائر الفرنسيين حتى نهاية شهر يوليو ، ١٢٨٥ قتيلًا ، ٥٣٠٦ جرحى ، ولكنها زادت في وقت الهجوم المضاد من أول أغسطس حتى ١٥ أكتوبر بعدد جديد بلغ ٨٩١ قتيلًا ، ٢٩٩١ جريحًا . وكانت نسبة عدد الفرنسيين في هذه الخسائر الى عدد الوطنيين تدل على أن فرنسا كانت قد تركت العبء الأكبر من هذه العمليات يقع على كاهل المجندين من أبناء المغرب العربى ، وأنها قد أصبحت دولة تعتمد على القوة البشرية الموجودة في شمال افريقية للمحافظة على تلك المنطقة الخاضعة لنفوذها ولحكمها . والواقع أن الرأى العام الفرنسى كان قد أجبر الحكومة على السير على هذه السياسة بعد أن أخذ في الامتناع عن دفع ضريبة الدم ، نتيجة لانخفاض نسبة المواليد في فرنسا ، ونتيجة لخسائر هذه الدولة في الرجال في الحرب العالمية الأولى . وكان الرأى العام الفرنسى لا يرحب بالخدمة العسكرية في شمال افريقية في ذلك الوقت ، حتى أن الحكومة قد اضطرت الى أن ترسم في ٢٠ سبتمبر سنة ١٩٢٥ عمل قرعة بين الجنود لاختيار اللازمين للخدمة هناك ، وأعفت من هذه الخدمة المتزوجين واليتامى ومن فقد والده أو أخوين له في الحرب العالمية الأولى . ولقد كلفت هذه العمليات فرنسا ، حتى ٢١ أكتوبر ، مبلغ ٩٥٠ مليون فرنك

(ذهب) علاوة على ثمن معدات أرسلت من فرنسا ، وبلغت قيمتها أربعمائة مليون فرنك .

أما القوات الاسبانية . الموجودة في شمال افريقية فان عددها قد بلغ بعد انسحاب سنة ١٩٢٤ : ٦٩٢٩٠ اسبانيا ، علاوة على ١٥٠٠٠ جندي من الوطنيين . ولكن الامدادات التي أرسلت من أجل هجوم الخريف زادت من عدد القوات الاسبانية في شمال افريقية الى ١١٨٠٠٠ جندي . وكان الجيش الاسباني - على عكس الجيش الفرنسي - يشتمل على عدد بسيط من القوات الوطنية ، وعلى أغلبية ساحقة من الاسبانيين ، وان كانت هذه النسبة غير ذات فاعلية كبيرة ، نتيجة لقلّة قيمة الجندي الاسباني من الناحية العسكرية .

كان معنى ذلك ان ما يقرب من ٢٨٠.٠٠٠ جندي فرنسي واسباني قد وقفوا في مواجهة ٦٠.٠٠٠ من أحرار الريف المجاهدين في خطوط القتال في شمال المغرب في ذلك الوقت . هذا من الناحية العسكرية .

أما من الناحية السياسية فان الهدف السياسي لذلك الصراع الحربى كان يتلخص قبل كل شيء في انضمام القبائل للحركة الثورية التحررية ، أو في بقائها على خضوعها للمحتلين الأجانب ، حسب وجهة نظر هذا الجانب ، أو الجانب الآخر . ولقد اعترف المستعمرون بأنهم لم يتمكنوا من السيطرة الا على نصف القبائل التي كان الأمير قد تمكن من تحريرها في هجوم الربيع . ولقد كان هذا العامل في جانب عبد الكريم ، الا أنه قد فشل من ناحية أخرى في مشروعه الأصلي الكبير ؛ مشروع اشعال الثورة وراء خطوط الفرنسيين ، وفي كل منطقة جبال الأطلس السماء .

ولقد اختتمت هذه السنة بترك الماريشال ليوتى للمغرب الأقصى ، اذ أنه قد أُلْعِم من الرباط في يوم ١٠ أكتوبر بعد أن كان قد كتب استقالته من منصب المقيم العام لفرنسا في يوم ٢٤ سبتمبر

سنة ١٩٢٥ . وترك ليوتى المغرب الأقصى بعد أن وصل اليه بيتان ، وأصبح مكلفا فيه منذ ٢٢ أغسطس بالاشراف على عملية الهجوم المضاد . وكان الماريشال ليوتى يرغب في التشاور مع حكومة باريس ، ان كانت ترغب في الاحتفاظ به في المغرب الأقصى ، اذ ان استقالته كانت مسببة ، بأسباب أكثر من الأسباب الشخصية . وأعلنت حكومة باريس في ٢ سبتمبر أنه سيعود الى المغرب ، وعاد اليها بالفعل ؛ ثم رجع الى فرنسا في أكتوبر ، وبعد أن ظل مقيما عاما لفرنسا هناك منذ ٢٨ أبريل سنة ١٩١٢ ، أى أربعة أسابيع بعد التوقيع على معاهدة الحماية على هذا الأقليم . ولم يتمكن ليوتى من السير على سياسة كسب الرؤساء التقليديين في المغرب ، وعجز عن الوقوف أمام هجمات الاشتراكيين ، الذين طالبوا بتعيين أحد المدنيين أو الرجال السياسيين في هذا المنصب الخطير ، والذي يتطلب من السياسة أكثر مما يتطلب من الشدة والبطش . ورغم ابتعاد الماريشال ليوتى عن ميدان العمليات فان السياسة لم يكن لها مجال كبير في المغرب في ذلك الوقت ، ما دامت فرنسا قد صممت على الاستمرار في عملياتها العسكرية ، وما دام الماريشال بيتان يشرف عليها في المغرب .

الفصل الحادى عشر

زيادة الضغط الاقتصادى

لقد تأثر كل من الجانبين ، الجانب الوطنى بقيادة الأمير عبد الكريم الخطابى ، والجانب الاستعمارى والذى يتمثل فى تجمعات القسوات الفرنسية والاسبانية ، بفشل عمليات سنة ١٩٢٥ . حقيقة أن هذه العمليات لم ترجح أيا من الكفتين على الكفة الأخرى ، ولكن تأثير الفشل لم يكن واحدا على كل من الطرفين .

ونجد من ناحية أن الانهالك قد بدأ يؤثر فى الناحية المعنوية لقوات ورجال الأمير عبد الكريم الخطابى . وكان هؤلاء الرجال الثوار قد استمروا فى عمليات مضنية أمام قوات الدولتين الكبيرتين . ولا بد من أن نذكر الفارق الكبير بين معدات وأسلحة كل من الطرفين ، وتأثير ذلك على الروح المعنوية عند أبطال الريف ، وخاصة مع مرور الزمن . كما أن وسائل الإمداد والتموين ، ونظام الحملة الحديث ، كان يساعد على تزويد الجنود الاستعماريين بسرعة ، بكل ما يلزمهم فى أثناء العمليات . وكانت ضخامة امكانيات القوى الاستعمارية تؤثر بلا شك فى الروح المعنوية لرجال عبد الكريم الخطابى ، وخاصة فى الوقت الذى اجتاحت فيه أجسادهم الى بعض الراحة ، وبدأوا فى الشعور بنقص مواد التموين .

إلا أن فشل القوات الاستعمارية الفرنسية والاسبانية فى الوصول الى انتصار ، أو حتى الى احتلال استراتيجى فى صالحهم ، كان يشعر الجانب الاستعمارى من الناحية الأخرى

بخطورة العدو الذى يحاربونه . ورغم تفوق القوات الفرنسية والاسبانية من الناحية العددية فإنها قد شعرت بنزالتها لخصم عنيد ، صلب العود ، مصمم كل التصميم على هزيمتها ، وفى الأرض التى يعرفها جيدا . ولذلك فإن هذه القوات الاستعمارية قد عملت على زيادة التعاون فيما بينها ، وبشكل لم يتوقعه كثير من المراقبين السياسيين والعسكريين ، وذلك لتعويض هذا التنافس السياسى الموجود بين هاتين الدولتين فى هذه المنطقة . وهكذا أدت عمليات هجوم الريف على الجنوب الى زيادة تكتل القوى الاستعمارية الفرنسية والاسبانية ضد أبطال الريف الأحرار .

واتخذ الموقف العام حول الريف فى ذلك الوقت شكل عناد ، ومن الجانبين ، سيؤدى ذلك الى عمل الفرنسيين والاسبانيين على اعداد حملة جديدة ، تتمكن من احراز النصر ، وفرض كلمتها بالقوة على الثورة الوطنية هناك .

وجاء الشتاء بعد ذلك ، بما يعنيه هذا الفصل فى الجبال من سقوط الأمطار ، وتغطية القمم والمواقع بالثلوج ، وانعيارات فى بعض جوانب الطرق . كما أن هذا الفصل من فصول السنة كان يعنى صعوبة المواصلات ، ونقص التموين ، وخاصة على تلك الأجساد التى أرهقت فى عمليات كبيرة وطويلة ، دون أن تتزود بكثير من المأكّل ، أو تستعد لمواجهة هذا البرد القارس منذ سنوات . وبدأ الانهالك على رجال الريف ، خاصة وأن اقليمهم كان قد أخذ يقاسى من تطويق القوات الاستعمارية البرية له من الجنوب ، ومن تطويق سفن الأساطيل الفرنسية والاسبانية لسواحلهم الشمالية . ورغم ذلك فإن هؤلاء الرجال كانوا لا يزالون مصممين على الاستمرار فى الكفاح ، ومواصلة الجهاد ، الى أن يقضى الله أمرا كان مكتوبا ؛ فاما النصر والتحرير ، وما الاستشهاد فى سبيل الحرية والاسلام .

وكانت الحكومة الفرنسية على علم بالأحوال السائدة فى ذلك

الوقت في اقليم الريف ، وذلك عن طريق الشرق والجزائر ، وعن طريق تاوريرت . ولذلك فان فرنسا قد أظهرت تصميمها واضحا على الاستمرار في العمليات الحربية ، وبدون توقف ، وفي تعاون تام مع حكومة مدريد .

وفي نفس الوقت نلاحظ أن الأمير عبد الكريم كان يأمل في أن تعود حكومات باريس ومدريد الى صوابها وتعترف بالحق لأصحابه . وكان يأمل ، وحتى اللحظة الأخيرة ، في أن ينجح الحزب الشيوعي الفرنسي ، والحزب الاشتراكي ، في اجبار حكومة باريس على انتهاء هذه الحرب ، خاصة وأنها كانت تتعارض مع الشعارات الاشتراكية ، ولا تمثل مصلحة الا لذلك القطاع المستغل المتحكم في فرنسا ؛ وتجبر الفرنسيين على دفع ضريبة غالية من أنثائها وأموالها في حرب استعمارية ، وضد رجال لا يطالبون الا بالحرية . وكان الأمير عبد الكريم يأمل كذلك في أن يتحرك الضمير العالمي أو بعض أو حتى احدى الدول الأوروبية ، للتدخل في هذه الحرب ، ولعرض الوساطة لدى حكومتى باريس ومدريد ، وبينهما رجال الريف . ولكن ذلك التضامن بين الدول الأوروبية ، واختلاف نظرتها الى الشعوب فيما وراء البحار ، خيب من آمال الأمير . والواقع أن ترابط المصالح الاقتصادية بين الدول الأوروبية ، وقيام ازدهار الاقتصاد الأوربي نفسه على أساس التسلط على بقية العالم واستغلال مناطقه ورجاله ، وكان عاملا يحرم رجال الريف من الحصول على تأييد أو حتى وساطة الدول الأوروبية . ولم تكن الأحزاب اليسارية في فرنسا قد وصلت ، من حيث التنظيم ، وتطبيق الشعارات ، وحتى من حيث التكتيك الحزبي ، الى مرحلة تسمح لها بمواجهة الموقف بصراحة وبقوة كافية . وأدى كل ذلك الى استمرار الموقف كما هو ، والى زيادة انھاك القوى الوطنية ، وزيادة تصميم الحكومات الاستعمارية على فرض نفسها بالقوة على الموقف .

ولا شك أن الأمير عبد الكريم الخطابي كان في وسعه أن يحصل على شروط للصلح في فصل الشتاء أفضل من تلك التي سيحصل عليها فيما بعد ، وبعد دخوله في معارك جديدة ، تزيد من انھاك قواه ، وتدفع الدول الاستعمارية الى زيادة عدد جنودها في شمال افريقية . ولكن الفرصة أفلتت من أيدي الوطنيين ، خاصة وأن الحكومات الاستعمارية كانت قد صممت على السيطرة على الموقف في الريف ، وبشكل يمنع قيام مشكلات جديدة في بقية المستعمرات .

ولقد ظهر هذا التصميم على مواصلة الحرب حتى النهاية على الحكومة الاسبانية ، كما ظهر على حكومة باريس . وكان السنيور كامبو ، زعيم الحزب الكتلائي الاقليمي ، قد كتب خطابا مفتوحا الى الماركيز دي استيلا في ١٦ أكتوبر سنة ١٩٢٥ ، ونادى فيه بانتهاز فرصة أحد الانتصارات لكي تنسحب اسبانيا من العمليات في المغرب الأقصى . ولكن الماركيز أجاب عليه بعد خمسة أيام بأنه مصمم على مواصلة التعاون والعمل المشترك مع فرنسا ، وعلى طول الخط ، ولكن بحكمة ، ورغم أن « المسألة المغربية » كانت مسألة سيئة بالنسبة لاسبانيا . ثم زاد موقف الماركيز تصلبا في شهر نوفمبر ، وأخذ يدلي بالتصريحات عن ضرورة القضاء على الثورة في المنطقة الاسبانية ، وضرورة المحافظة على النظام بكل طريقة ممكنة ، وان كان ذلك سيحدث بطبيعة الحال باسم السلطان ، وبمساعدة بعض شيوخ القبائل المواليين لهذه السياسة .

وحيثما استقال الماركيز دي استيلا من منصب المنسحب السامي والقائد العام للقوات الاسبانية في المغرب بعد ذلك ، تسلم الجنرال سان خورخو منصب الماركيز دي استيلا ، وأصبح الجنرال خوردانا مديرا عاما للشؤون المغربية والمستعمرات في رئاسة مجلس الوزراء في مدريد . ولذلك فان هذا التغيير لم يكن يعنى الكثير ، بل كان يدل على استمرار الحكومة الاسبانية على السير على سياستها في المغرب الأقصى ، رغم تغير القواد ، اذ أنهم كانوا جميعا

من مدرسة واحدة ، هي المدرسة الاستعمارية ، ولهم اتجاهات متقاربة في ضرورة استخدام الشدة مع الوطنيين ، وفي اعتزازهم بنعرتهم القومية الجوفاء .

وكان الجنرال بواشو قد تسلم القيادة العليا من الجنرال ناولان في المغرب في ٢٨ ديسمبر سنة ١٩٢٥ . وكانت السلطات الفرنسية في كل من المغرب وفرنسا في ذلك الوقت في موقف يضطرها الى زيادة الرغبة في الوصول الى نتيجة حاسمة في حرب الريف ؛ حقيقة أن دوافع الفرنسيين كانت أقل من دوافع الاسبانيين ، خاصة وأن الثورة لم تكن قد أعلنت في منطقة النفوذ الفرنسي ، بل في منطقة النفوذ الاسباني ؛ كما أن القبائل التي انضمت الى الثورة كانت في غالبيتها من قبائل الريف ، ولكن فرنسا كانت لا تزال تخشى من ازدياد نفوذ هذه الثورة واتساع رقعتها من جديد ، وكذلك من نشوب ثورات أخرى موازية لها ، ان لم تكن متعاونة معها ، في مناطق الأطلس المتوسط ، والأطلس الأعلى . وكانت الناحية الاستراتيجية تدفع فرنسا الى ضرورة الوصول الى حل حاسم في حرب الريف أكثر من الدوافع السياسية أو المعنوية . وكانت العمليات الحربية قد مدت خط الحدود الفرنسية بطريق واضح نحو الشمال ، وأصبح على القوات الفرنسية وقوات المستعمرات الفرنسية أن تقوم بعمليات في مناطق جبلية ، ووسط أهالي معادين ، وفي ثورة معلنة ، وبعيدا عن قواعدهما في فاس . وكانت خطوط الجبهة الفرنسية قد أصبحت أطول بكثير من خطوط الجبهة الاسبانية ، وأصبح على القوات الفرنسية أن تعاني شتاء قاسيا قارسا على تلك الجبهة ؛ وأصبحت « سلامة » القوات الفرنسية تتطلب ضرورة الوصول الى حل حاسم في ميدان العمليات . ولكن الموقف السياسي في فرنسا نفسها كان عاملا من عوامل الضغط على الحكومة الفرنسية . واتخذت أحزاب اليسار ، وخاصة الحزب الشيوعي والحزب الاشتراكي ، من المسألة المغربية مادة خصبة لفضح حكومة فرنسا وباريس أمام الرأي العام

الفرنسي . وكان هذا الضغط من جانب اليساريين يدفع الحكومة وعناصر اليمين وحتى الوسط الى ضرورة تكتيل قواهم في تلك المعركة التي كانت تمثل صراعا سياسيا يستند الى أسس اقتصادية واضحة . ولقد حاول النواب الشيوعيون في الجلسة الخاصة بميزانيات المغرب في مجلس الأمة الفرنسي أن يشنوا هجوما عنيفا على سياسة حكومة باريس فيما وراء البحار . ولا شك أن هذه الهجمات كانت قوية ، ولكن خوف عناصر اليمين وعناصر الوسط من انتصار اليساريين جعلهم يزيدون من تصميمهم على السير على سياسة القوة حتى النهاية . ولم تعد المسألة هي مجرد استقلال اقليم الريف ، أو الاعتراف بحكم محلي ، أو استقلال داخلي فيه ، بل أصبحت صراعا على القوة والسلطة في الامبراطورية الفرنسية ، مركزة في مجلس الأمة في باريس . وهكذا خدمت هجمات العناصر اليسارية الفرنسية قضية استقلال وحرية الريف من ناحية المبدأ ، وان كانت قد أدت من الناحية الفعلية الى ازدياد تصميم العناصر الاستعمارية على استخدام الشدة والقوة مع أبطال الريف الأحرار .

وهكذا ازداد الضغط الاستعماري على جمهورية الريف ، وعلى رجال وقوات الأمير عبد الكريم الخطابي . وتعاون في الوصول الى هذه النتيجة طول مدة الحرب ، مع النعرة الاستعمارية ، وعلى أساس مصالح القوى المستعمرة المستقلة . وحتى تكتيك العناصر المتحررة قد أدى عمليا الى زيادة الضغط الاستعماري هناك . وكان انهالك قوى المجاهدين ، وزيادة الامكانيات التي نزلت أمامهم الى الميدان ، عوامل تصعب على أبطال الريف الوصول الى النتائج التي كانوا يأملون فيها ، أو حتى الاحتفاظ بتلك المحققات التي كانوا قد حصلوا عليها منذ اعلان ثورتهم ، وتأسيس جمهوريتهم ، بعد موقعة أنوال سنة ١٩٢١ .

الفصل الثاني عشر

انهالك قوى المجاهدين

بدأت مواد التموين في النقص لدى أبناء الريف ، وكانت العمليات الحربية قد أجبرت عددا كبيرا من الرجال على البقاء في مواقعهم ، في الفترة التي سقطت فيها الأمطار ، بدلا من العمل في أراضيهم لانتاج الحبوب . كما أن طول فترة حمل السلاح حرم اقليم الريف من جزء هام من الانتاج . وكان شعور الرجال بنقص مواد التموين أثناء استمرارهم في العمل في الميدان الحربي يؤثر في روحهم المعنوية ، ومع ازدياد عدد قوات الدول الاستعمارية في الميدان ، ونزولها بأسلحة جديدة ، وخاصة المدرعات ، ومدافع الجبال والميدان ، واستخدامها للطائرات في عمليات الاستكشاف ، وفي توجيه ضرب المدفعية . . أصبح للقوات الاستعمارية فاعلية أكبر . كما أن توغل القوات الفرنسية شمالا داخل منطقة الريف هدد بقسم أراضي هذه الجمهورية الثورية الى قسمين ، بل هدد بالسيطرة على عاصمتها ، وصعب الاتصال بين كثير من مواقع مجاهدي الريف . وبعد أن كان الثوار قد وصلوا الى مشارف فاس ، وأخذوا يمنون أنفسهم بتحرير عاصمة مولاي ادريس ، أصبح عليهم أن يواجهوا مصفحات الفرنسيين ، ويقوموا بعملياتهم تحت الطائرات الفرنسية المفيرة في أراضيهم وفوق رؤوسهم . وكان هذا التقهقر في حد ذاته عاملا يخفض من الروح المعنوية لدى الثوار ، ويساعد على اظهار بقية المصاعب الخاصة بالتموين ، ويقلل من انتصارات ثورتهم . وكان أبناء الريف قد توصلوا مع زحفهم صوب الجنوب الى الدخول في محادثات مع أبناء أعمامهم في اقليم

الأطلس المتوسط ، وبعد فترة العمليات في خريف سنة ١٩٢٥ وجدوا أنفسهم وقد ابتعدوا كثيرا عن هذا الميدان ، وشعروا باقتراب العدو منهم من الجنوب ، واقترب العدو من سواحلهم الشمالية . وبعد أن كان ثوار الريف ينشرون مبادئ الثورة بين رجال القبائل في الجنوب ، وجدوا أن العدو يتمكن بأمواله وبامكانياته من شراء بعض المشايخ المحليين ، أو إبعادهم عن الثورة ، أو يتمكن من فرض نفسه عليهم بقوة السلاح . وكانت كل هذه العوامل ، وكثير غيرها ، تساعد مع ازدياد حدة البرد وقلة التموين ، على ظهور الانهالك على هؤلاء الرجال المجاهدين . ولا شك أنهم كرجال ثورة كانوا يأملون في توسيع نطاق ثورتهم ، وفي انضمام الآخرين اليها ، وكان آخر ما يفكرون فيه هو انضمام بعض الرؤساء والمشايخ للقوات الاستعمارية ، أو موافقتهم على الخضوع لرجال الاستعمار .

واستخدم الجنرال بواشو نفس التكتيك الذي كان رجال ثورة الريف قد استخدموه ضده ، واعتمد في ذلك على سوء الأحوال العامة عند الأهالي ، وعلى تفوق امكانياته المادية . وبعد أن كان الأمير عبد الكريم قد عمل على استدراج رجال القبائل الواقعيين وراء خطوط الفرنسيين اليه ، استخدمت القيادة الفرنسية في المغرب نفس هذا التكتيك ضده منذ أوائل سنة ١٩٢٦ . وجهزت القيادة الفرنسية عددا من القوات غير النظامية ، جنسيتها من المغرب نفسه ، وان كانت قد وضعتها تحت قيادة ضباط فرنسيين . وفي الوقت الذي كانت فيه القوات الفرنسية النظامية ترابط على خطوطها ، قامت هذه القوات غير النظامية بالدخول في أراضي القبائل المجاورة للحدود ، وأجبرتها - بمساعدة الطائرات الفرنسية - على الدخول تحت طاعة الفرنسيين . وكان أكبر نجاح لفرنسا في هذا الميدان هو استسلام أبناء مصباح من قبائل صنهاجة ، والتي كانت أراضيها تعتبر مفتوحة في الجهة الفرنسية . ومع تدهور الأحوال عند الوطنيين اضطروا الى تقديم تضحيات،

ووافقوا على شروط كانت قاسية عليهم . فلقد وافقوا على تضحية ثور عن كل عشر أسر ، والتعهد بالخدمة حسب طلب الفرنسيين لاصلاح الطرق وتعبيدها ، ووافقوا على اعادة انشاء جميع الطرق التى نسفها الثوار ، واضطروا الى اعطاء بعض الأسرى كضمان لسلامة القوات الفرنسية الموجودة فى أراضى القبيلة ، واضطروا الى تسليم بندقية و ٣٠٠ فرنك عن كل أسرة فى خلال أسبوع ، بعد أن كانت كل أسرة قد دفعت ١٢٠٠ فرنك مع التسليم للفرنسيين . وأخيرا فانهم قد اضطروا الى التعهد بتسليم رجال للعمل فى القوات الفرنسية النظامية ، وللمساعدة على دخول القبائل الأخرى فى طاعة الفرنسيين (١) .

وكذلك سلمت قبائل الجبالا والقسم الجنوبى من بنو ورياغل ، وكانت أراضيهم تقع فى وسط الورغة ، وتهدد فاس تهديدا مباشرا . وشعر عبد الكريم بخطورة استسلام هذه القبائل ، وحاول أن يعيدها الى حظيرة جمهورية الريف ، وشن هجوما مضادا على تلك المنطقة الواقعة على الحدود ، وأجبر القوات الفرنسية على اخلاء بعض المواقع فى خلال شهر فبراير ، مثل موقع البيبان ، وقام بهجوم آخر منظم على أراضى قبيلة مطبوة ، الواقعة الى الشمال الغربى من مصباح صنهاجة . ولكن الفرنسيين عادوا بهجوم مضاد ، وتقدموا الى ما بعد مواقعهم الأولى ، رغم استماتة مجاهدى الريف فى القتال ، كما هى عادتهم .

وجاءت الأنباء فى نفس الوقت بأن قبيلة الانجارا ، الساكنة فى الجزء الشمالى الغربى من المنطقة الاسبانية ، وفى المثلث الواقع بين سببنة وتطوان وطنجة ، قد تفاهمت على شروط الصلح مع الاسبانيين ، وتمكن الاسبانيون فى ٧ مارس من

(١) نشرت هذه الشروط فى جريدة « الطان » فى ٥ يناير سنة ١٩٢٦ ، وذكرت الجريدة أن هذه القبيلة قد وافقت عليها .

الاستيلاء على مواقع المدفعية المنصوبة على المرتفعات الجنوبية المطلة على تطوان ، والتى كانت مدافعها المأسورة منهم تصلى تلك المدينة بنيرانها منذ أكثر من عام . واستولوا عليها ، وان كانوا قد دفعوا فى سبيل ذلك خسائر فادحة . وهكذا تهيأ الجو ، بل حتمت الظروف ضرورة التفاهم بين الطرفين ، وللوصول الى حل معقول ، بعد أن تغير الموقف العسكرى ، وبهذا الشكل الواضح .

وبدأت مشروعات المباحثات بين رجال الريف وكل من الفرنسيين والاسبانيين بتلك المحاولات التى قام بها الكابتن غوردون كاننج ، الذى كان يعطف على كفاح أبناء الريف من أجل استقلالهم ، والذى كان قد أعلن للغرب الشروط التى وضعها الأمير عبد الكريم لقبول الصلح . ويصر الكابتن كاننج على أنه قد قام بمهمة الوساطة بصفته الشخصية ، ودون أى تكليف من الحكومة البريطانية ، رغم أن الصحافة الفرنسية قد اتهمته بأنه كان يبحث عن الامتيازات الخاصة باستغلال المعادن والثروة المعدنية فى تلك المنطقة . وكان كاننج قد قابل بانليفى - رئيس الوزراء الفرنسى - فى أواخر شهر أكتوبر سنة ١٩٢٥ ، أى بعد نهاية فصل العمليات ، وحصل منه على تصريح بالذهاب الى الريف ، وعن طريق الرباط ، ولكى ينصح عبد الكريم بأن يطلب رسميا شروط الصلح الفرنسية الاسبانية التى قررها الطرفان فى ١٨ يوليو . وفى هذه المرة اضطر الأمير عبد الكريم الى أن يقبل الفرصة التى أفلتت منه فى أثناء الصيف . وعاد كاننج فى ٢٣ ديسمبر الى باريس ، وعن طريق الرباط ومرسيليا ، وبصفته ممثلا رسميا لعبد الكريم فى طالب شروط الصلح المذكورة . وطلب كاننج - بمجرد وصوله الى مرسيليا - مقابلة أرنستيد بريان رئيس وزراء فرنسا الجديد ، ولكنه رفض مقابلته . وحين أثار النواب الشيوعيون هذه المشكلة فى مجلس النواب ، وطلب كاشان تفسيرات عنها ، أصر بريان على موقفه ، وموقف حكومته ، وضرورة المحافظة على الامبراطورية ، واحترام التعهدات الدولية ، وذهب الى أكثر

من ذلك ، وادعى أن سلطة عبد الكريم على رجال القبائل تقوم على التهديد والإرهاب ، وأن الأمير يستخدم بعض الجماعات من قبيلته لاجبار رجال الريف على البقاء تحت سلطته ، وأن بعض هذه القبائل قد أخذت في التخلص من هذه السلطة . ولا شك أن بريان كان يغالط نفسه حين قرب بين تنظيم أبطال الريف ، والاتجاهات الفاشستية التي كانت قد بدأت في الظهور بوضوح في أوربا في ذلك الوقت ؛ ولكنه حاول بذلك أن يبعد بين اليساريين الفرنسيين وبين العطف على قضية أحرار المغرب . وشرح بريان بعد ذلك أن فرنسا لا تخسر رجالا في هذه الحرب ، إذ أن مجندين المغرب الأقصى وشمال إفريقيا الفرنسية هم الذين كانوا يقومون بالعمليات ، وبحراسة الحدود ، واستطرد شارحا أن خسائر الفرنسيين قد انخفضت انخفاضاً ملموساً في الشهرين الأخيرين ، وأن التحسن قد ظهر في جانب الفرنسيين . وإذا كان بريان قد رفض التفاهم مع الأمير عبد الكريم الخطابى ، فإن ذلك لم يمنعه من التصريح بأن الاتصالات والمفاوضات كانت مستمرة مع رجال كل قبيلة ، وعلى انفراد . وذكر أن حكومته غير ملزمة باعتبار عبد الكريم الشخص الوحيد الذى يجب عليها أن تتفاوض معه ، بل أن التفاوض مع عبد الكريم سيسهل عليه أمر إعادة سيطرته على القبائل التى قدمت طاعتها للفرنسيين ، وعلى أساس أنه هو الممثل للأقليم . ولقد أصر على أن الحكومة لا تستطيع ترك تلك القبائل التى طلبت حمايتها تقع ثانية تحت رحمة عبد الكريم . وشرح أن مقابلته للكاتبين كاننج تعنى فقد ولائه لاتفاقياته مع اسبانيا ، ومن الضروري أن تشترك اسبانيا في مفاوضات الصلح مع فرنسا . وكان بريان قد غير سياسة الحكومة الفرنسية قبل أن يصل الكاتبين كاننج الى مرسيليا . ورغم فشل كاننج في هذه المهمة فإنه قد عاد الى طنجة . الا أن القنصل البريطانى هناك طلب منه ترك الأراضى المغربية نهائياً ، ودون أن يعود لمقابلة الأمير عبد الكريم .

وبعد فشل هذه المحاولة استعد كل من الطرفين لمواصلة العمليات الحربية من جديد في فصل الربيع ، وقام المارشال بيتان والماركيز دى استيلا بدراسة خطة العمليات الجديدة في مدريد . وفي نفس الوقت قام مجاهدو الريف على الجبهة بإنشاء التحصينات والاستحكامات المعززة بالدشم ، وخاصة في بعض القطاعات المواجهة للفرنسيين . ولقد وصل عدد المواقع المتتالية في بعض هذه الاستحكامات الى نفس عدد وشكل الخطوط الفرنسية الألمانية في الحرب العالمية الأولى . ولكن الأمير عبد الكريم كان قد شعر بضرورة الوصول الى تسوية ؛ حتى وان كانت محاولة الكاتبين كاننج قد فشلت ؛ وكانت القوات تستعد للحرب ، من الجانبين .

وأرسل الأمير عبد الكريم بخطاب الى جريدة التايمز ، عن طريق مراسلها في طنجة ، وأعلن فيه استعداداه للصلح (١) . كما أنه واصل مكاتباته مع ليون جابريللى ، المفتش الفرنسى في تاورت ، وعرض عليه السماح للأسرى الاسبانيين والفرنسيين بالاتصال بأصدقائهم ، وبارسال الملابس والأدوية والأطعمة اليهم . وأدت هذه المحاولة الأخيرة الى قيام بعثة طبية في شهر أبريل من تاورت الى تارجست ، وبقيادة جابريللى نفسه . وصحبت هذه المعاملة اقتراحات جديدة للمفاوضات . ولكن الحكومتين الفرنسية والاسبانية كانتا غير راغبتين في ترك الفرصة تفلت منهما من جديد . وستقوم فرنسا باستغلال امكانياتها المادية والعسكرية لفرض الشروط التى ترغب فيها ، وبالقوة ، على رجال الريف .

(١) نشر هذا الخطاب في عدد ١٧ مارس سنة ١٩٢٦ .

الفصل الثالث عشر

المفاوضات والتسليم

كانت المفاوضات التي وقعت بين الفرنسيين والاسبانيين من جانب ، ورجال الريف وعبد الكريم الخطابي من الجانب الآخر ، غير متكافئة . وتدل الطريقة التي سارت بها هذه المفاوضات على أنها كانت عملية سياسية لتفطية انسحاب الثورة الوطنية ، التي أنهكتها الحرب من الميدان ، خاصة وأن الاستمرار في العمليات الحربية بعد ذلك كان يعتبر عملية انتحارية بالنسبة للأمير عبد الكريم الخطابي ورجاله .

وبدأت هذه العملية السياسية بمؤتمر عقدته الحكومة الفرنسية في باريس في ٣٠ مارس سنة ١٩٢٦ برئاسة أرسيد بريان ، رئيس الوزراء ، وبالنفي وزير الحربية ، وبانسو وكيل الشؤون الافريقية بوزارة الخارجية ، وستيج المقيم العام الفرنسي في الرباط ، والمارشال بيتان ، مارشال فرنسا . وأعلنت الحكومة يوم ٥ أبريل أن هناك أملا كبيرا في البدء في المفاوضات ، ثم تباحث رئيس الوزراء الفرنسي مع سفير اسبانيا في باريس ، وأعقب ذلك انعقاد مجلس الوزراء في مدريد ، وأعلن الماركيز دي استيلا أن فرنسا واسبانيا متفقتان كل الاتفاق على سياستهما المغربية . وبعد انعقاد جديد لمجلس الوزراء الفرنسي أعلنت حكومة باريس في ٩ أبريل أن الحكومتين الفرنسية والاسبانية قد قبلتا اقتراح عبد الكريم للدخول في مفاوضات ، وأنهما قد عينتا مندوبين عنهما للدخول في تلك المفاوضات في وجدة مع ممثلي قبائل الريف الثائرة . أما مندوبو الريف فكانوا هم سي محمد أزرقان صهر الأمير

عبد الكريم ووزير خارجيته كممثل في بنوورباغل ، وسي محمد الحطني وسي أحمد جدي عن القبائل الأخرى . ثم أعلن في باريس بعد ثلاثة أيام أخرى أن الشروط التي سيتقدم بها الفرنسيون والاسبانيون في وجدة تلخص وتنص على اعتراف القبائل بسيادة السلطان ، ونزع سلاحهم وانسحاب عبد الكريم من الاقليم ؛ وستحصل القبائل بعد ذلك على نوع من الاستقلال الذاتي ، داخل نطاق المعاهدات القائمة ، وعلى ألا يدخلوا في أية علاقات مباشرة مع أية حكومة أجنبية ، خلاف اسبانيا وفرنسا في منطقتيهما . وستحصل القبائل على هدنة نظير ضمانات عسكرية ، ثم تبدأ عملية لتبادل الأسرى بين الطرفين . ولكن فرنسا واسبانيا ستستمران في استعداداتهما الحربية لحملة الربيع ، والى أن يتم عقد صلح نهائي .

لقد كانت هذه الشروط أصعب كثيرا من شروط شهر يوليو . ولا شك أن الرأي العام الأوربي شعر بذلك ، وشعر بخطورة فرضها ، وخشى من امكانية رفضها . واضطر وزير الحربية الفرنسي الى أن يعلن في اليوم التالي أنها ليست الشروط الأساسية للصلح ، بل يمكن اتخاذها كأساس للمفاوضات ، وأن ذلك يمكن اعتباره كتنازل وتساهل من جانب دولتي الحماية . وكان الفرنسيون والاسبانيون يلوحون بشرط هام وخطير ، كان بريان قد أشار اليه في ٣٠ ديسمبر ، وهو أنهم سيقومون بعقد اتفاقيات منفصلة مع رجال كل قبيلة على حدة ، ودون أن يتفقوا مع الأمير عبد الكريم . وكان هذا يستتبع من الأمير أن يوافق على الدخول في المفاوضات ، حتى لا تفلت هذه الفرصة من يديه ، خاصة وأن رجاله الثوار هم الذين سيقومون بعملية المفاوضات .

والظاهر أن الشروط التي أعلنت في باريس يوم ١٢ أبريل كانت قد أبلغت الى سي محمد أزرقان في اليوم السابق لاعلانها ، وأن عبد الكريم قد قبلها في نفس اليوم . واجتمع المندوبون

الفرنسيون والاسبانيون بمندوبى الريف يوم ١٨ أبريل فى معسكر برنو ، الواقع على الطريق المؤدى من تاورت الى تارجست . وأخذ القائد حدو مكانه بين مندوبى الريف بدلا من سى الحطنى . وأعلن الجنرال سيمون ، رئيس الوفد الفرنسى ، والمتحدث الرسمى باسم كل من فرنسا واسبانيا معا ، أن المفاوضات فى الشروط الأساسية لا يمكن البدء فيها الا بعد استيفاء شروط حربية معينة ، والاتفاق عليها ، وهى الشروط الخاصة بتبادل الأسرى ، والاتفاق على خط الحدود الفرنسى الاسبانى بشكل نهائى . وكانت تمثيلية ، اذ أنها كانت تهدف حرمان رجال الريف من بطاقة يمكنهم استخدامها فى الضغط على الأعداء ، وكانت ستؤدى الى تسوية الخطوط ومواقع القوات الفرنسية والاسبانية قبل الاتفاق على الشروط السياسية . وظهر أن السلطات العسكرية الفرنسية والاسبانية كانت ترغب فى التقدم حتى خط نهر الفرط بجوار سيدى على بورقبة ، وذلك بعد فشلها فى اقامة الاتصال بين قواتهما مع عمليات شهر أكتوبر . وكان هذا العامل يهدد مواقع مجاهدى الريف ، فأعلن مندوبو الريف أنهم لم يكونوا يعلمون بأن مسألة الحدود سوف تثار فى هذا الاجتماع ، واعترضوا على الشروط الحربية التى فوجئوا بها ، ورفضوها ؛ وعاد القائد حدو بالطائرة لعرض الأمر على عبد الكريم الخطابى .

ووصلت تعليمات الأمير عبد الكريم للقائد حدو يوم ٢٠ أبريل ، وأعلن مندوبو الريف أنهم سيقبلون الشروط السياسية التى تقدم بها الفرنسيون والاسبانيون ، بعد ادخال التعديلات عليها : فبدلا من النص الخاص « بقبول الحالة الناتجة عن الخضوع للسلطان » كما جاء فى النص الفرنسى الاسبانى ، اقترحوا « الاعتراف بسلطة السلطان الدينية والزمنية » . وأما فيما يتعلق بطلب انسحاب الأمير عبد الكريم فانهم قد شرحوا أن مثل هذا الانسحاب المفاجئ سيتسبب فى نشر الفوضى فى جميع أنحاء الريف ، وهو أمر يتعارض مع مصلحة الجميع . ولذلك فانهم قد اقترحوا أن يستقيل الأمير

من نفسه ، وبعد فترة معينة ، وعلى أساس أن يسمح له بالذهاب الى بلد اسلامى آخر . وأما فيما يتعلق بنزع السلاح فقد كان من الصعب حدوثه قبل انشاء قوات عسكرية محلية ، تجمع من بين رجال القبائل أنفسهم . وأخيرا فان تبادل الأسرى لا يمكن أن يقع قبل عقد الصلح ، بل من المنطق أن يقع بعد التوقيع على الصلح .

ولكن هذه الصراحة لم تكن لتعجب المندوبين الأوربيين ، فاحتج عليها الجنرال سيمون ، واضطر المندوبون الى الرجوع لاستشارة حكوماتهم فى باريس ومدريد . والظاهر أن هاتين الحكومتين قد اقتنعتا بالطريقة التى يجب أن تسير عليها المفاوضات ، اذ أنهما أعلنتا فى ٢٦ أبريل سحب الاشتراط الخاص باستيفاء النقاط العسكرية قبل التحدث فى الشروط السياسية . وسافر مندوبو الريف من العيون الى وجدة ، وبدأ مؤتمر الصلح أعماله .

ولقد ظل مؤتمر الصلح منعقدا من ٢٧ أبريل الى يوم ٦ مايو ، وان كانت المفاوضات قد وصلت الى أزمة يوم ٢٩ بسبب مسألة نزع السلاح والاستقلال الذاتى . ذلك أن مندوبى الريف قد أصروا على ضرورة قيامهم أنفسهم بنزع سلاح القبائل ، وان كانوا لم يعارضوا فى اشراف بعض الضباط الفرنسيين والاسبانيين عليهم فيها ، ولكن دون قيام القوات الفرنسية والاسبانية بهذه العملية . وأما فيما يتعلق بالاستقلال الذاتى داخل نطاق المعاهدات القائمة فان مندوبى الريف قد فشلوا فى فهم معنى تلك العبارة ، وذلك نتيجة لعدم فهم الخبراء الفرنسيين والاسبانيين أنفسهم لمعناها ، واعترفهم فى أثناء المحادثات بعدم امكان تفسيرها . وتشدد المندوبون الفرنسيون والاسبانيون مع مندوبى الريف بعد أن رفضوا الافراج عن كل الأسرى الموجودين لديهم فى الحال . وعرض مندوبو الريف الافراج عن الجرحى والمرضى من بين الأسرى ، وكذلك النساء والأطفال ، وأن يسهلوا عمل بعثة طبية

ترسل اليهم . وكان الفرنسيون والاسبانيون قد رفضوا فيما مضى السماح بمرور الأطباء والمهمات الطبية الى الجرحى في منطقة الريف ، وكان يصعب عليهم بعد ذلك ، أن يتعللوا بمسألة الأسرى على أى شكل من الأشكال . وانتهى الأمر بأن طلب مندوبو الريف مهلة جديدة لاستشارة الأمير عبد الكريم ، ووافق الأوروبيون على ذلك في أول مايو ، وأعلنوا أنه اذا لم تقبل مبدئيا شروط ١١ أبريل الأساسية يوم ٦ مايو ، ويتم الافراج عن جميع الأسرى في نفس اليوم ، فان الحرب ستستأنف في صبيحة اليوم التالى .

وسافر ازرقان وحدو الى تارجست ، وعادوا منها يوم ٥ مايو ، وساعد أحد زوارق الطوريد في نقلهم ذهابا وإيابا بين نيمور على الساحل الجزائرى وبين خليج الحسيمة . ولكن ما أن بدأ اجتماع المؤتمر يوم ٦ مايو حتى ظهر أن التعليمات التى أعطاها عبد الكريم لا تطابق الانذار الفرنسى الاسبانى . وترك مندوبو فرنسا واسبانيا الاجتماع بعد ربع ساعة من بدايته ، وسافر مندوبو الريف من وجدة في نفس المساء . وبدأ الهجوم الفرنسى الاسبانى في صبيحة اليوم التالى .

واقدمت الطائرات بالقاء قنابلها يوم ٧ مايو سنة ١٩٢٦ ، ثم تقدمت القوات الفرنسية والاسبانية في صبيحة اليوم التالى صوب تارجست من اتجاهين خط نهر القوط ، ومواقع الحملة الاسبانية الى الداخل من خليج سيدابلا . حقيقة أن القوة الاسبانية قد اعترضتها مقاومة عنيفة ، وأن الأهالى قد كبدها خسائر جسيمة ، ولكن التقدم الفرنسى الاسبانى لم يلق مقاومة كبيرة في بقية النقاط . واتصلت كل من القوتين بالأخرى في يوم ٢٠ . واحتلت القوات الاسبانية أنوال يوم ١٨ ، ثم دخلت قوة من المغاربة غير النظاميين الى تارجست يوم ٢٣ وقام الجنرال سان خورخو بمظاهرة في نفس اليوم حين سافر من أجدير الى مليلة ، ولكى يثبت أن الاقليم الواقع بين هاتين النقطتين ، وهو

اقليم بنوورياغل ، قد أصبح مفتوحا ، وفي نفس اليوم وصلت خطابات من عبد الكريم الى الجنرال سان خورخو في مليلة ، والى سيتج في فاس ، مطالبة بوقف العمليات الحربية .

ولا شك أن الأمير البطل كان في موقف لا يحسد عليه . حقيقة أنه كان قد نجح في تنظيم رجاله وتسليحهم ، والنزول بهم الى عمليات تمكن فيها من ابعاد قوات المستعمرين ، وتهديدهم في مناطق نفوذهم ، ولكن طول مدة الحرب ، وضعف الامكانيات ، مع فرض الحصار البحرى ، وزيادة عدد قوات الأعداء ، وتفوقهم في التسليح والتموين ومعدات الحملة ، كانت كلها عوامل في غير صالح أبطال الريف . لقد كان على هذا البطل ورئيس الجمهورية أن يشرف بنفسه على اعداد الثوار وتنظيمهم ، ويشرف كذلك على عملياتهم ، وفي منطقة صغيرة وفقيرة ، وان كانت غنية بروحها المعنوية وبنزعتها الاستقلالية . وكان عليه بعد ذلك أن يوفق بين العمليات الحربية ، وبين عمليات الانتاج الضرورية ، سواء اكان ذلك في ميدان الزراعة أم الرعى ، وحتى لا تنتهى الأقوات من المجاهدين ، وهم في خط النار . وكان على أبطال الريف أن يقسموا أنفسهم بين العمل وبين الجهاد ، وكل ذلك في توافق وفي تكامل ، ومع أهداف محددة ، وبخطة متكاملة . ولكن طول مدة الحرب والتفاوت بين الامكانيات المادية الموجودة أجبرته على التفاوض . وحتى في هذه العملية حاول الأمير أن يحصل على أحسن شروط ممكنة ، لبلاده قبل أن تكون لنفسه . وكان يعلم أن الاستمرار في الحرب هى عملية انتحارية واضحة اذا ما استمرت الحرب الى أطول من ذلك ، وأن معنى دخول القوات الاسبانية والفرنسية لنزع السلاح من القبائل يعنى الخراب والدمار ، والقتل والسلب والنهب ، والسبى وهتك الأعراض . لقد كانت معركة ، وحتى آخر وقت . وكان يريد لها ، وب نفسه ، ومع تلك الحفنة المؤمنة المخلصة التى وقفت الى جانبه ، وبصفتها من أركان الحرب ، ومن الوزراء والمستشارين ، وكان قد قام بكل ما يمكنه أن يقوم به ، وما دامت العمليات قد

بدأت من جديد ، فعليه أن يوقفها . وما دام الفرنسيون والاسبانيون يعلقون على تسليمه شخصيا أهمية كبرى ، فليسلم نفسه حتى لا يتفرس المستعمرون في أبناء البلاد . ولا شك أنه كان مريرا على نفس هذا القائد الوطنى والعسكرى أن ينسحب من اقليمه ومن بين أهله وجنوده . ولكنها كانت شجاعة فائقة منه أن يقوم بها .

وفى يوم ٢٦ مايو أمر الأمير عبد الكريم الخطابى باطلاق سراح الأسرى الأوربيين الموجودين لديه ، وفى الساعة الخامسة والرابع من صبيحة اليوم التالى ركب الأمير فرسه ، ودخل وسط خطوط الفرنسيين . لقد جاء بنفسه ليسلم سيفه للعدو المنتصر . وقابلته القوة الفرنسية مقابلة قائد أعلى ، وحيته التحية العسكرية ، ثم سافر فى اليوم التالى الى تازا .

ويصعب علينا أن نتحدث عن حركة مقاومة بعد تسليم الأمير ، وفى مثل هذه الأوضاع . لقد انهارت حركة المقاومة فى كل مكان ، وظهر التضارب بين عمليات بعض الفرق المكافحة التى كانت لا تزال صامدة فى الميدان . وكان رجال الريف قد بدأوا هجوما لهم فى جبهة تطوان بعد تجدد العمليات الحربية ، ولكن بعض عناصر الجبال قامت فى وجه ممثلى جمهورية الريف فى منطقة شفشاون فى الأسبوع الأول من شهر يونيو . وعلينا أن نذكر أن بعض عمليات الكفاح ضد الاسبانيين قد استمرت فى بعض المناطق ، ولفترة من الزمن ، حتى وان كانت قصيرة . وكان هؤلاء المجاهدون لا يصدقون أن ثورتهم قد انتهت ، وأن الأجانب سيتمكنون من البلاد .

ولقد تمكن الاسبانيون من احتلال مناطق الريف وغمارة فى شهر يوليو ، ثم بدأوا عملياتهم ضد الجبال فى أوائل أغسطس ، واحتلوا شفشاون يوم ١٠ منه . وبنهاية موسم عمليات سنة ١٩٢٦ أصبحت المنطقة الاسبانية من المغرب الأقصى تخضع لأول مرة فى تاريخها لحكم أجنبى فعلى ، هو الحكم الاسبانى ، الذى جاء باسم الحماية . ولقد أعلنت السلطات الفرنسية أنها قد استولت على ما يقرب

من ٣٠.٠٠٠ بندقية و ١٣٥ مدفعا و ٢٠٤ مدفع رشاش . ومما لا شك فيه أن أسلحة أخرى ظلت موجودة فى أيدي الرجال الأحرار . وعلى أى حال فإن الفرنسيين أنفسهم قد تمكنوا كذلك من تثبيت أقدامهم فى تلك الفترة فى منطقة حمايتهم ، وذلك باحتلالهم لمنطقة تازا .

وانعقد مؤتمر فى باريس بين الفرنسيين والاسبانيين فى الفترة الواقعة بين ١٤ يونيو و ١٠ يوليو ، وذلك لتسوية المشكلات السياسية الناتجة عن تسليم الأمير عبد الكريم ؛ وقد اختتم هذا المؤتمر أعماله بالتوقيع على اتفاقية خاصة بتحديد خط الحدود بين المنطقتين الفرنسية والاسبانية ، وعلى أساس اتفاقية ٢٧ نوفمبر سنة ١٩١٢ . واتفقت الدولتان على ضرورة المحافظة على التعاون بينهما فى ميدان الرقابة البحرية لسواحل المغرب ، والتعاون الحربى والإدارى على الأراضى الواقعة على الحدود . ووقع على هذه الاتفاقية بريان مع دى استيلا ، الذى حضر خصيصا لذلك لى باريس يوم ١٣ يوليو . وأخيرا فإن هذا المؤتمر قد اتفق فيه على ارسال الأمير عبد الكريم الى المنفى ، واختاروا جزيرة ريونيون مكانا لنفى هذا الأسد .

وإذا كانت الدول الاستعمارية قد تمكنت من التخلص من هذا القائد الوطنى ومن نفيه عن بلاده ، فإنها كانت تعتمد على شخصيات مغربية فائرة ، أو متعاونة وضعيفة الشخصية ، لكى تنفذ عن طريقها سياستها الاستعمارية والاستغلالية فى شمال افريقية . وكان الاتفاق على ارسال الأمير المكافح الى جزيرة ريونيون قد تم فى نفس الوقت الذى كان فيه المولى يوسف ، سلطان المغرب الذى جاء بعد الحماية ، فى زيارة رسمية لباريس ، وقابل فى باريس بى تونس . وهكذا تجمعت القوى الرجعية والقوى المتقاربة معها ، ودل ذلك على بدء حركة جزر لعمليات الكفاح ضد الاستعمار فى شمال افريقية . ولكنها كانت حركة مؤقتة ، إذ أن حياة الأمير البطل كانت لا تزال تحمل الكثير من البأس والشدة على الاستعمار .

الفصل الرابع عشر

الأمير في المنفى

أقلعت السفينة تحمل الأمير وأسرته وبعض أتباعه القرييين إلى جزيرة ريونيون ، وحملت معها أملا ورمزا لكفاح أمة من أجل مزتها وكرامتها وحقوقها السليبة . وإذا كانت المعركة العسكرية قد انتهت ، وبشكل يتعارض مع مصالح الوطنيين والمجاهدين ، فالواقع أنها لم تكن إلا مرحلة من مراحل هذه المعركة ، خاصة وأن تاريخ الشعوب لا يقاس بحياة رجل واحد أو جيل واحد ، بل يمتد من الأجداد إلى الآباء والأبناء والأحفاد .

ولقد كان من الصعب على المراقب السياسي أن يعتقد ، أو حتى يتنبأ بإمكانية قرب نشوب ثورة جديدة في بلاد المغرب وبلاد الريف ، بلاد الرجال الأحرار ، خاصة وأن حزب التحرير التي كان الأمير عبد الكريم الخطابي قد قادها ضد القوى الاستعمارية كانت قد امتدت إلى فترة سنوات طويلة ، وأنهكت الاقليم . وكان الجميع ينظرون إلى نفي الأمير عبد الكريم الخطابي على أنه النهاية الفعلية لمقاومة القوى الوطنية لقوى الاستعمار الفاشية . وقليل من فكر في ذلك الوقت في إمكانية عودة حركة التحرير إلى هذه البلاد ، وقل منهم من فكر في مشاركة الأمير مرة جديدة في مثل هذه العمليات .

لقد كانت نكسة واضحة في حركة نمو القوى الوطنية ، وحصولها على حقوقها ، وممارستها لسلطاتها في أراضيها . وقل الأمل في قلوب العرب والمسلمين في إمكانية الوصول إلى حلول واضحة باستخدام نفس الطريقة التي سار عليها الأمير عبد الكريم .

حقيقة أن معظم القيادات الوطنية في العالم العربي والإسلامي بوجه عام ، وفي شمال افريقية بوجه خاص في ذلك الوقت لم تكن من أنصار سياسة استخدام السلاح والمعركة المعلنة حربيا ضد الاستعمار ، وخاصة في المناطق التي تميزت بوجود طبقة وسطى فيها ، طبقة فضلت استخدام السياسة والمفاوضة على استخدام الحرب والأسلحة النارية ؛ ولكن ذلك لم يمنع القيادات العربية المجاهدة الأخرى الموجودة في ذلك الوقت في شمال افريقية ، وكانت تتمثل في حركة السنوسيين ، وقيادة السيد عمر المختار لها ، من الاستماتة في وجه الاستعمار ، وكأنها كانت تحارب من أجل اقليمها ، ومن أجل بقية أقاليم المغرب العربي في نفس الوقت . ولكن علينا أن نذكر أن خروج عبد الكريم الخطابي من ميدان العمليات قد أدى من ناحية إلى ضعف ثقة العرب والمسلمين في طريقة الجهاد المسلح من ناحية ، وأدى من ناحية أخرى إلى ازدياد عدد الحركات التي عملت على استخدام السياسة والمفاوضة سلاحا لمكافحة الاستعمار . لقد خمدت أصوات البنادق والمدافع ، وقلت ذمائم القتلى والشهداء ، ولكن ازداد ظهور عدد الأحزاب والحركات السياسية ، وبشكل يعتبر ظاهرة واضحة في تاريخ المغرب العربي ، بعد نفي الأمير عبد الكريم الخطابي .

لقد سار الأمير إلى منفاه ، وكأنه قد استسلم لقضاء الله وقدره ، وهو المسلم المؤمن بقضية بلاده . ومما لا شك فيه أنه لم يكن يفكر في ذلك الوقت في إمكانية العودة إلى بلاده ، ولا في إمكانية مواصلته للمعركة ، من قريب أو حتى من بعيد . ولكن الأمير عبد الكريم الخطابي كان قد ترك مبادئ واضحة ، وبذر بذورا قوية ، وفي أرض خصبة ، وبين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه . كان الأمير عبد الكريم الخطابي قد بذر بذور الثورة ، ووضع أسس الوحدة ، على الأقل بين بلاد المغرب العربي ، والتي وحد الله بينها ، ووفق بين قلوب أبنائها ، بعد أن هداهم إلى الاسلام ، وإذا كان من طبيعة الثورة أن تنتشر وتشع حول المركز

التي تنبعث منه ، وبشكل لا يعرف حدودا ، ولا يعرف قوميات الا في نطاق الثورة ونطاق الحرية ، فان رجالا من المغاربة قد تلقفوا هذه المبادئ وعملوا من أجلها ، وان كانت أسلحتهم قد اختلفت عن أسلحة الأمير عبد الكريم الخطابي .

ذهب الأمير عبد الكريم الخطابي الى المنفى في سنة ١٩٢٦ ، وظهرت في نفس السنة جمعية « نجم شمال افريقية » التي لمع اسمها وزاد نشاطها بين المغاربة في كل من المغرب الأقصى والجزائر وتونس . واذا كان الأمير عبد الكريم الخطابي قد اتخذ السلاح وسيلة في أيدي المجاهدين من أبناء الريف ، فان مصالى الحاج سيتخذ الحجة السياسية ، وضرورة الوصول الى تغيير سياسى واجتماعى واقتصادى ، أساسا لكفاحه ضد الاستعمار الأوربي في بلاد المغرب العربى . لم تنته المعركة بهذا الشكل اذن بخروج الأمير عبد الكريم الخطابي ، وبتسليم السلاح والبنادق والمدافع لقوات الاحتلال الفرنسى والاسبانى ، بل أخذ عمال المغرب العربى ، وبأقاليمه الثلاثة ، في النزول الى ميدان معركة جديدة ، كانت هى نفس المعركة السابقة ، وان اختلفت وسائلها وأدوات العمل فيها . ومما لا شك فيه أن مصالى الحاج كان يعتبر نفسه في هذا الميدان خليفة لذلك القائد الأمير ، والبطل الزعيم الذى ذهب الى المنفى . ومما لا شك فيه كذلك أن الأمير عبد الكريم الخطابي كان يجد في عملية «نجم شمال افريقية» استمرارا لجهاده ، وكفاحه ضد الاستعمار . واذا كانت ظروف المعركة هى التى حتمت على رجال المغرب بعد ذلك تقسيم حركتهم ، فمما لا شك فيه أن استمرار كفاح المغاربة كان قد نتج عن جهاد أمير الريف .

لم يكن من السهل على هذا الأسد الأسير أن يعيش في الأسر، ويعيش في المنفى بين أسرته وأتباعه ، بعيدا عن بلاده ، بعد أن عاش المعركة بين رجاله . وكان الأمير البطل قد استسلم لمصيره ،

ولما كتبه الله عليه ، وعلى بلاده . ولم يناقش ، ولم يجادل مع السلطات الموجودة في ريو نيون ، أو حتى السلطات الفرنسية في أوروبا نفسها ، عن مصيره ومصير أسرته . ويؤكد ليون جابريللى أنه قد عاش في عزلة عن العالم ، وعن الحرب وعن السياسة ، وامتنع حتى عن الشكوى ، حتى من سوء المعاملة وسوء الجو ، حتى سنة ١٩٣٢ . لقد كانت ست سنوات ثقيلة عليه وعلى أسرته ، والغريب أنها قد انتهت في نفس الوقت التى انتهت فيه حركة كفاح وجهاد عمر المختار في ليبيا أمام الإيطاليين .

كان جو الجزيرة لا يصلح لسكنى رجل من رجال الجبال ، اذ أن درجة الحرارة كانت مرتفعة ، ونسبة بخار الماء كبيرة في الهواء . وكان من الصعب على رثى هذا الأمير تحمل هذا المناخ الذى لم يعتده ، ويبعد كل البعد عن كونه صحيا . وكان الأمير يقضى أوقاته بين الصلاة وقراءة القرآن ، والاعتناء بأولاده وبناته ، والتدريس بنفسه لهم . ولقد كانت حياته في المنفى حياة عزلة وابتعاد عن كل ما في الدنيا ، وساعدته على ذلك قوة الايمان .

لم يكن الأمير عبد الكريم يحمل حقدا أو ضغينة لفرد أو لدولة ، ولم يحملها للفرنسيين أو الاسبانيين ، رغم أنه كان لا يتراجع عن مبادئه الأولى ، التى أعلنها وحارب من أجلها ، وهى أن الحرية تؤخذ ولا تمنح . ولكن سوء الأحوال الجوية في الجزيرة ، دفعه الى الضجر ، وإلى الشكوى ، خاصة وأن أبناءه وبناته أخذوا يشبون ، واحتاجوا الى التعليم ؛ وكان من المنطق أن يفكر في مستقبل بناته اللاتى تحولن من فتيات صغار الى آنسات يافعات . وفي بداية الثلاثينات اشتكى الأمير الى حاكم الجزيرة من سوء الأحوال المناخية فيها ، ثم اشتكى سنة ١٩٣٤ وشرح أنه قد أعطى كلمته بالانسحاب من الميدان ، وليس هناك داع لعقوبة أسرته وأبنائه وبناته معه في تلك الجزيرة المعزولة عن العالم . ثم اشتكى في سنة ١٩٣٦ وفي سنة ١٩٣٨ . لقد اشتكى أربع

مرات ، وفي خلال فترة نفى وصلت الى احدى وعشرين سنة ؛ وكان مقلا في شكواه ، ودل ذلك على صفة من صفاته الأساسية ، وهى الابداء والشمم ، اذ أنه لم يشبتك الا حينما طفح الكيل .

ولكن فرنسا لم تكن مستعدة طوال مدة هذا الوقت لأن تعمل على تغيير مكان الأمير عبد الكريم . وكانت قد احتفلت بالعيد المئوى لاحتلالها للجزائر ، وامتدت فيها موجة من النفوذ الاستعمارى سمحت للمتفعين من هذه الحركة برفع أصواتهم ، واعطائها لونا يختلف في شكله عما كان عليه في حقيقته ، والادعاء بأن فرنسا قد أتت بالسلم والحضارة والمدنية الى بلاد شمال افريقية . ورغم أن فرنسا قد شهدت في الثلاثينات تأزم العلاقات مع اسبانيا ، شقيقتها اللاتينية ، وشريكها في حكم المغرب واستغلاله والتحكم فيه . رغم ذلك فان فرنسا لم تكن توافق على اتخاذ سياسة ملاينة مع الأمير عبد الكريم الخطابى ، سياسة قد تغضب اسبانيا .

وظل الأمير في منفاه ، وان كان قد ظل هناك بجسده ، اذ ان روحه كانت مع بلاده ، بلاد العروبة والاسلام ، بلاد الحرية والاستقلال ، بلاد العزة والكرامة . وظلت الأحوال على ما هى عليه الى أن جاءت الحرب العالمية الثانية ، ثم انتهت هذه الحرب والأمير في منفاه . وتطورت الأوضاع والأمور في بلاد المغرب العربى ، بل وفي كل العالم العربى والاسلامى ، كما تطورت في الدول الأوربية نفسها . وبعد نهاية هذه الحرب ظهرت عوامل جديدة في الميدان ، أثرت في تاريخ الأمير المنفى ، وأثرت في تاريخ بلاده ، وفي تاريخ شمال افريقية ، وعلاقتها بالمغرب والاستعمار .

الفصل الخامس عشر

الأمير في القاهرة

كانت فرنسا قد نعمت بفترة هادئة لحكمها في أقاليم شمال افريقية ، في الفترة السابقة لاعلان الحرب العالمية الثانية . وكانت تستغل الأقاليم الثلاثة في تزويد نفسها بما يلزمها منها من ثروات زراعية ومنجمية ، وحتى في القوى البشرية اللازمة للعمل في المناجم والمصانع ، واللازمة لاستخدامها في القوات المحاربة ، كوقود للنيان . وكانت فرنسا قد اختارت الابن الثالث للمولى يوسف لكى يصبح سلطانا على المغرب الأقصى بعد وفاة والده سنة ١٩٢٧ ، ورات فيه أميرا مهذبا نبلا . واعتقدت أن في وسعها التأثير عليه حتى تستخدم اسمه وسلطته ستارا تخفى وراءها عملية استغلالها للأقليم . وكانت فرنسا قد أمنت على مصالحها ، وكذلك امتيازاتها ، في هذا الاقليم بنفيها الأمير عبد الكريم الخطابى بطل الريف بعيدا عن بلاده . أما بالنسبة لاسبانيا فان استمرار الثورات فيها بين الملكيين والجمهوريين ، ثم تبلور المعارك على أرضها بين الديمقراطيين والشيوعيين والفاشستيين ، كان يستنزف مواردها في داخل شبه جزيرتها . ولكن اسبانيا لم تكن في حاجة الى كثير من الموارد ، تأتي إليها من الخارج ، اذ أنها كانت أعجز من أن تتمكن من استخدامها ، وكان القضاء على حركة مقاومة رجال الريف قد سمحت لاسبانيا بوضع سنوات من الحكم الهادىء في منطقة نفوذها في شمال المغرب الأقصى .

وظلت الأحوال على ذلك حتى نشبت الحرب العالمية الثانية ، وجاءت تغيرات كبيرة لكى تؤثر في القوى الموجودة في الاقليم ، وفي

القوى التى تفرض نفسها عليه ؛ ذلك أن فرنسا لم تتحمل هجمات قوات هتلر على حدودها رغم تحصنها وراء خط ماجينو المنيع ، واستسلم مليون ونصف مليون جندى فرنسى بعد فترة قصيرة من بدء الحرب ، وبعد تقدم الوحدات المصفحة الألمانية بقيادة الجنرال روميل فى منطقة شمال وشرق فرنسا . وإذا كان بعض العسكريين الخبراء يعرفون فى ذلك الوقت أهمية المرونة فى تكتيك المعركة ، فانهم لم يكونوا هم المسيطرين على وزارة الحربية الفرنسية ، أو على القيادة العامة الفرنسية فى ذلك الوقت . واضطرت حكومة باريس الى ترك عناصمتها ، وحاولت الذهاب الى فرساي ، ثم قررت التقهقر حتى بوردو . وأخيرا استقر رأيها مع المارشال بيتان على الالتجاء الى فيشى ؛ كما استقر رأيها على عقد الهدنة مع النازيين .

حقيقة أن سقوط فرنسا وتسليمها بهذا الشكل كان صدمة عنيفة ، وكان عاملا مؤثرا على بقائها كدولة عظمى ، ولها مستعمرات هنا وهناك ؛ ولكن هذا لم يمنع من ظهور قيادة جديدة قادها الجنرال ديغول بعد فراره والتجأه الى لندن . وان ما يهمنى من هذا التغيير هو أن فرنسا قد انهزمت ، وأصبحت لها حكومتان ، وكل منهما تعمل ضد الأخرى ، وكل منهما تحاول مد نفوذها الى شمال افريقية . ونتيجة لخضوع السلطات الفرنسية هناك لحكومة المارشال بيتان ولنفوذ لجنة الهدنة الألمانية ، فان ذلك لم يمنع عددا من رجال المغرب من التفكير فى امكانية الحصول على بعض حقوقهم من فرنسا فى ذلك الوقت . وإذا كان بعض رجال الجزائر قد اجتمعوا وأصدروا « البيان » الذى سيصبح أساسا لظهور حزب البيان فيما بعد ، فان عددا من رجال المغرب الأقصى قد اجتمعوا وقرروا ضرورة العمل من أجل « الاستقلال » ؛ وإذا كانت أسماء علال الفاسى والحاج أحمد بيلافريج قد ارتبطت باسم حزب الاستقلال ، فلا شك أن شخصية السلطان المولى محمد بن يوسف كانت سندا قويا ، ومشجعا كبيرا لهم فى اتخاذ هذا الطريق الوطنى .

ولا شك أن سلطان المغرب كان قد نضج وتطور فى هذه المرحلة ، ورأى ضرورة وقوفه الى جانب حركة الاستقلال ، رغم أنه ذو سيادة تحد من عملية نزوله الى الميدان السياسى . وهكذا وجد المغرب الأقصى من جديد شخصية قائد تظهر فى الميدان ، وان كان طريق حزب الاستقلال يختلف عن الطريق الذى كان الأمير عبد الكريم الخطابى قد سار فيه . وإذا كان الأمير قد استخدم السلاح وسيلة يصل عن طريقها الى تحقيق أهدافه ، فان الحركة القومية والوطنية المغربية ورجال حزب الاستقلال سيستندون الى السياسة للوصول الى أهدافهم .

لقد كان من الصعب على فرنسا أن ترى ازدياد نفوذ وسلطة المولى محمد بن يوسف فى بلاده وعلى رجاله ، وبطريقة تتعارض مع مصالحها وامتيازاتها ، ولكن فرنسا كانت مغلوبة على أمرها ، وخاصة أمام ذلك الانقسام بين أتباع بيتان ورجال ديغول ؛ وفى الوقت الذى بدأت فيه الولايات المتحدة الأمريكية فى النزول الى ميدان العمليات الحربية ، وعملت على وضع أقدامها فى أقاليم شمال افريقية . وإذا كان هناك تعارض وتنافس بين القيادتين أو الاتجاهين الفرنسيين وبعضهما ، فقد ظهر هناك تنافس جديد بين الفرنسيين والأمريكيين ؛ خاصة وأن بعض الاتجاهات الأمريكية كانت ترسم أمر فرض نفوذها بدلا من النفوذ الفرنسى فى الممتلكات الفرنسية السابقة ، وكانت بعض الاتجاهات الأمريكية تكتفى بالتفكير فى منع النفوذ الفرنسى من العودة الى تلك المناطق ، وعلى أساس حصولها على استقلالها ، ومنع زيادة النفوذ الفرنسى من الوصول الى ما كان عليه قبيل الحرب العالمية الثانية . وأمام هذا التضارب ظهرت الفرصة واضحة لكى يفتنمها الوطنيون ويصلوا الى محققات واضحة .

لقد جاء كل من ونستون تشرشل وروزفلت فى ذلك الوقت الى فندق « الأنفا » فى ضواحي الدار البيضاء لتنظيم أمر انزال القوات

الأمريكية في بلاد شمال افريقية ، وبناء القواعد البرية والجوية ، والطرق التي ستسير عليها العمليات . ولقد اتصل روزفلت في ذلك الوقت بالموالي محمد بن يوسف سلطان المغرب ، وتحادث معه ، وبدون إذن من سلطات الحماية الفرنسية هناك . ولا شك أن هذه المقابلة قد أثرت في سلطان البلاد ، وأثرت في سلطات الحماية ، وفي علاقة كل منهما بالآخر ؛ وستبدأ هذه العلاقات في التدهور منذ هذه الفترة ، وستزيد سلطات الحماية من تشدها على سلطان البلاد ، في الوقت الذي يقرر فيه السلطان تأييده لحركة الاستقلال الوطنية .

ولقد استمر تدهور هذه العلاقات ، وخاصة بعد انتصار الحلفاء على النازيين ، وازداد وضوحا بعد اقضاء الجنرال ديغول عن الحكم في سنة ١٩٤٥ . وأصبحت شخصية الجنرال جوان ، وهو المتعصب ذو التفكير المتجمد ، تعتبر أهم شخصية فرنسية في شمال افريقية في ذلك الوقت ، وأهم شخصية عسكرية في فرنسا نفسها . وكان جوان من رجال الاستعمار اليمينيين ؛ وكان قد نشأ في الجزائر ، وفي ذلك المناخ الفكري والاقتصادي الذي لا يدين إلا بالتعصب ، وبضرورة التحكم ، وباحتقار كل ما هو وطني ، وخاصة في خارج حدود فرنسا . واعتقد جوان أن في وسعه تسيير الملك محمد الخامس ، الذي حصل على لقب الملك بعد قرار حزب الاستقلال . ولكنه أخطأ إذ أنه كان يواجه أسدا قد صمم في هذه المرحلة على ضرورة الوصول ببلاده الى الاستقلال . وهكذا زاد التناقض بين القوى الموجودة في الميدان ، وفي وقت تغيرت فيه الأوضاع في العالم كله بشكل عام ، وفي البلاد العربية بشكل خاص .

كانت الدول العربية في المشرق قد تمكنت ، في خلال السنوات الأخيرة للحرب العالمية الثانية من تجميع قواها ووضع الأسس لإنشاء تجمع عربي ، تبلور أخيرا منذ سنة ١٩٤٤ في شكل جامعة الدول العربية . وكان إنشاء جامعة الدول العربية ، يعتبر في حد

ذاته وفي ذلك الوقت شعارا جديدا لم يستمع به العرب منذ زمن بعيد ؛ وكان أملا يراود عقول العرب وأمانهم ، ويزيد من حماسهم ، ويوجههم صوب تكتيل الجهود ، والعمل من أجل العروبة .

وهكذا زاد العامل القومي ظهورا واشتدادا في بلاد المغرب ، في الوقت الذي تجمدت فيه السياسة الاستعمارية ، وفي الوقت الذي كان يمهّد لانتهاء الاستعمار ، وفي كل ميدان .

لقد عملت السلطات الفرنسية على التشديد والتشبيث تجاه محمد الخامس ، وكانت تشعر بالضعف ، وتحاول الظهور بمظهر القوة ، واستخدمت ذلك أمام رجال أحرار ، فزاد تصميم أحرار المغرب على ضرورة الوصول الى الحقوق الطبيعية للبلاد .

ومع زيادة تدهور العلاقات بين الفرنسيين والمغاربة ، وزيادة التشديد تجاه محمد الخامس ، قررت الحكومة الفرنسية اتخاذ اجراءات لها لون من الكرم والتسامح حيال بطل الريف المنفي في تلك الجزيرة الصخرية في المحيط الهندي ، وقررت امكانية الافراج عن الأمير عبد الكريم الخطابي ، وعودته لكي يستقر في فرنسا نفسها . ولا شك أن السلطات الفرنسية الاستعمارية كانت ترسم في ذلك الوقت أمر التلويح أمام محمد الخامس بامكانية عودة أسد الريف السابق الى بلاده ، حتى تجبره على التساهل في معاملته معها ؛ وأن كانت هذه السياسة قد انتهت بفشل فرنسا ، مع الرجلين .

لقد اتخذت وزارة الخارجية الفرنسية - وهي المسؤولة عن شئون الحماية في المغرب الأقصى ، والتي هي جهة الاختصاص في العلاقات مع اسبانيا - قرارا في الأسبوع الأخير من شهر مارس سنة ١٩٤٧ بنقل الأمير عبد الكريم الخطابي وأسرته وأتباعه الى فرنسا . وعهدت هذه الوزارة الى ليون جابريللي ، الذي كان قد أحيل الى المعاش في ذلك الوقت ، بمهمة اختيار مسكن يليق بالأمير وبأسرته في أحد الأماكن التي تقع في جنوب فرنسا ، وأعطته الميزانية

اللازمة للقيام بهذه المهمة ، سواء اكان ذلك لشراء المقر ، أم لتأسيسه ولتزويده بكل ما يلزم . وكان هناك تفكير في امكانية اقامة الأمير في بو التي كانت فرنسا قد نفت اليها الباي محمد المنصف باشا ، بعد ان كانت قد خشيت من نفوذه في تونس . ولكن الحكومة الاسبانية احتجت على اقامة أسد الريف قرب حدودها الشمالية ؛ فاضطرت فرنسا الى أن تختار له مقرا جديدا قرب مرسيليا ، والى الشرق من مصب نهر الرون . وانها لقصة ممتعة تلك التي يرويها لنا ليون جابريللى عن مهمته لعمل كل ما يلزم لاستقبال الأمير ، ولاعداد مقره الجديد ، خاصة وأن وزارة الخارجية الفرنسية لم تكن ترغب في معاملة الأمير في ذلك الوقت على أنه في « المنفى » أو أنه في اقامة تحت الحراسة ، أو حتى اقامة محدودة ، بل كانت قد قررت أن يعيش فيها .

وسارت التجهيزات على قدم وساق في فرنسا ، وركب الأمير وأسرته وأتباعه احدى السفن ، وجاء بعض أقاربه من المغرب نفسه لاستقباله عند رسو السفينة في مارسيليا . ولكن السفينة تأخرت ، ثم جاءت الانباء بعد ذلك بأنها وصلت الى فرنسا بدون الأمير . وكانت مفاجأة للجميع . كانت السفينة التي تقل الأمير قد أخذت سيرها في احدى القوافل من السويس شمالا الى بورسعيد ، ثم اكتشف طاقم السفينة أن الأمير وأسرته وأتباعه قد اختفوا من على ظهر السفينة . ثم صدر بلاغ بأن الأمير قد طلب الالتجاء السياسى الى مصر ، وأن حكومة القاهرة قد أعطته هذا الحق ، والحقيقة أنها كانت تفخر به .

ولم تثبت حتى الآن الطريقة التي تم بها نزول الأمير من السفينة الى أرض مصر ، وعلاقة ذلك بالبحارة على السفينة ، وبسلطات الميناء ، رغم أن المنطقة كانت مليئة بقوات الاحتلال البريطانية ، وكانت الشركة العالمية للملاحة في قناة السويس تشتمل على أكثر من موظف فرنسى متعصب ، علاوة على اتصالها بأجهزة فرنسا

السرية . وكان التجاء الأمير الى القاهرة يمثل معنى جديدا في تطور المشكلات العربية في ذلك الوقت ، وفي تطور مراكز القوى في العالم العربى ، ويدل على أن القاهرة قد أصبحت مركزا رئيسيا يلتجئ اليه الأحرار .

واذا كانت فرنسا قد اعتبرت أن في وسعها استخدام الأمير عبد الكريم الخطابى كأداة لاختافة محمد الخامس وارهابه فانها قد فشلت في مسعاها . وقويت روح الكفاح الوطنى في بلاد المغرب الأقصى ، وظهر واضحا في كل القطاعات .

وحاولت فرنسا أن تعطى خطابا مكتوبا الى محمد الخامس لكي يقرؤه بمناسبة دخوله الى مدينة طنجة في يوليو سنة ١٩٤٧ ، وكان هذا الخطاب يشتمل على فقرة تتحدث عن « المحققات » التي حصلت عليها البلاد في ظل الادارة الفرنسية ، وبتوجيه من حمايتها، ولكن محمد الخامس رفض قراءة هذه الفقرة ، وأمام الجماهير ترك النص المكتوب جانبا ، وأضاف عليه فقرات أخرى لم تكن فرنسا توافق عليها أبدا ؛ ذلك أنه قد تحدث عن أن المغاربة هم مسلمون وعرب ، ومن الطبيعى أن تتجه أنظارهم الى اخوانهم العرب في بلاد المشرق ، وأن يعملوا على زيادة الروابط التي تربطهم بهم ، والتي حاول الزمن أن يقلل منها .

لقد فر أسد الريف من أيدي الفرنسيين ، ووقف ملك الاستقلال يعلن استقلال بلاده ونهاية الاتجاه الاقليمى ، وضرورة السير مع المجموع العربى . وكانت ضربة قوية للسياسة الاستعمارية التي سارت عليها فرنسا في الاقليم ، وستعجز فرنسا بعد ذلك عن أن تتمكن من الوصول الى تفاهم مع محمد الخامس ، وفي الوقت الذى أصبح فيه مجرد بقاء الأمير عبد الكريم الخطابى في القاهرة كابوسا يزعج سياستها الاستعمارية . وستفشل فرنسا في السيطرة على

الموقف ، رغم استخدامها للشدة والقوة والعنف ؛ اذ ان الأمر كان قد خرج من أيديها . كما أن وجود قيادتين ، الواحدة في المغرب نفسه ، وهى اقيادة سيد البلاد ، والثانية في القاهرة ، وتمثل في كفاح بطل الريف ، سيعمل على نوع من التنافس بين القياذتين وبعضهما ، ومن أجل الصالح العام . كما أن استناد الحركة الوطنية المغربية الى امكانيات المغرب ذاته ، والى امكانيات القاهرة ، سيؤدي الى قهر الأعداء .

الفصل السادس عشر

الأمير وجهات التحرير

أصبحت القاهرة في الفترة التالية لنهاية الحرب العالمية الثانية مركز استقطاب للقوى التحررية في العالم العربي . وكانت القاهرة وحكومتها هى التى قامت بالدور الرئيسى في تجميع كلمة العرب ، وفي انشاء جامعة الدول العربية . وكانت هذه العاصمة قد أخذت تشهد مجيء الملوك والرؤساء اليها ، للتشاور في المشكلات العربية الجماعية ، والتي كانت تعبر عن كثير من المعانى لتوحيد الجهودات العربية ، والوصول الى محققات واضحة في هذا الميدان . وكانت هناك مشكلة فلسطين ، ومشكلة استقلال ليبيا ، ومشكلات التحرير في اقاليم المغرب العربي . وكانت القوى العربية النامية قد أخذت في النضوج ، في الوقت الذى قصمت فيه الحرب العالمية الثانية ظهر القوى الاستعمارية ، وسهلت الطريق أمام القوى النامية . وزاد تبلور المصالح بين العسكريين ، الوطنى والاستعماري ، بعد اعلان انشاء الأمم المتحدة ، وعلان حقوق الانسان ، وفي الوقت الذى أخذت فيه دول الكتلة الغربية الاستعمارية في منافسة بعضها على مناطق النفوذ ، وفي نطاق العمليات الاقتصادية ، والذي حاولت فيه الدول العظمى الكبيرة ، مثل الولايات المتحدة الأمريكية ، أن تزيد من امكانياتها على حساب الدول الاستعمارية التى أنهكتها الحرب ، مثل بريطانيا وفرنسا - في هذا الوقت ازداد فيه تكتل القوى العربية ، وازداد نموها ، للحصول على حقوقها ؛ وحاولت الافادة في ذلك من التناقض والتنافس الداخلى ، في العسكري الاستعماري نفسه .

وكان الشعور بالضعف لدى الدول الاستعمارية ، وشعورها بثقل كاهل ديون الحرب عليها ، يجبر الدول الاستعمارية السابقة ، وخاصة إنجلترا وفرنسا ، على القيام بمحاولات لتخفيض نفقاتها ، حتى تتمكن من دفع جزء من ديونها ، وتتمكن من الاحتفاظ بمستوى معيشة معقول بالنسبة للمواطنين في بلادها . وكانت الولايات المتحدة تساعد على هذا الاتجاه ، بمشروعات الانماء والتعمير ، التي خصصتها لأوربا ، والتي كانت قد قاست الكثير من دمار الحرب .

وخشيت فرنسا من وصول أى عناصر من عرب المشرق الى المغرب وبلاده في ذلك الوقت ، بل خشيت حتى من اتصال العناصر العربية الشرقية بأبناء المغرب المقيمين في فرنسا نفسها ، سواء إكان ذلك للعمل أم للدراسة ، أم حتى في المواسم السياحية . ورفضت فرنسا وصول الأساتذة المصريين اللازمين لإنشاء المعهد المصرى في الجزائر ، كما رفضت إنشاء هذا المعهد في طنجة ، رغم أنها كانت مدينة دولية . ولكن هذا التشدد من جانب فرنسا لم يمنع استمرار نمو الحركة الوطنية في جميع أقاليم المغرب العربى ، واتجاه أنظار هؤلاء المجاهدين الى القاهرة ، وخاصة بعد أن أصبحت مركز تجمع القوى التحررية ، ومقر الأمير عبد الكريم الخطابى ، وفي الوقت الذى اعتمدوا فيه على أنفسهم ، وعلى قوة إيمانهم بالله ، وبعدالة قضيتهم . وإذا كانت الحركة التحررية لبلدان وأقاليم المغرب العربى قد عملت في ذلك الوقت في فرنسا نفسها ، واستندت الى القاعدة الشعبية المناضلة الموجودة في البلاد ، فانها قد استندت كذلك الى القاهرة ، واستندت الى الأمير عبد الكريم الخطابى فيها .

ورغم أن التجاء الأمير عبد الكريم الخطابى الى القاهرة كان يعنى عدم اشتغاله بالسياسة ، الا أن أحدا في القاهرة لم يكن في وسعه أن يمنع هذا الرجل وهذا القائد من أن يستمر في الاشعاع ، وبشرف على عملية التنظيم ، وعلى توجيه العناصر المغربية والجزائرية والتونسية ، والتي كانت قد بدأت في الوصول الى القاهرة كذلك .

كان الأمير عبد الكريم الخطابى يمثل قطبا من الأقطاب ، وقائدا وزعيما ، وكان رئيس دولة ثورية حاربت الاستعمار ، ولمدة سنوات طويلة . وكان أملا بالنسبة للمكافحين والمناضلين ، سواء من المغرب أو المشرق ، وأصبح من الطبيعى ومن المنطقى أن يزوره الرجال والقواد والزعماء ، وبصفته مجاهدا وقائدا ، وأبا روحيا لهم ، في حركتهم الوطنية .

وصل غلال الفاسى الى مصر ، ووصل اليها كذلك الحبيب بورقيبة ، بعد مقاومته « العنيفة » حين هرب من تونس ، على ظهر أحد قوارب الصيد المتجهة شرقا ، ثم واصل السير حتى دخل حدود مصر . ثم توافد بعد ذلك عدد من رجال الجزائر والأحرار فيها ، والتفوا جميعا حول الأمير عبد الكريم الخطابى .

وإذا كانت المرحلة الأولى لنشاط هؤلاء الرجال ، قد انحصرت داخل نطاق الكفاح السياسى ، إذ أن غالبيتهم لم تكن من الرجال العسكريين أو الذين يمكنهم منازلة قوات الاحتلال الأجنبى بأسلحته ، الا أن هذه المرحلة كانت تعتبر تمهيدا واستعدادا للمعارك التالية التى سينزلون اليها بعد وضوح الرؤية ، واقتناعهم بفشل كل محاولة حتى للاستنجاد بالضمير العالمى ، وبالأمم المتحدة ، رغم تحدث الجميع عن حقوق الأمم في الحرية والاستقلال ، وتقرير مصيرها ، ووضع مبادئ تصفية الاستعمار .

شهدت القاهرة في هذه المرحلة الأولى نشأة مكتب المغرب العربى في القاهرة . وكان الأمير عبد الكريم الخطابى هو مركز نشاط وتوجيه هذا المكتب ، حتى وان كان نشاطه قد اقتصر على الناحية السياسية . ولقد اشتمل هذا المكتب على هيئات داخلية ، تمثل نشاط كل من المغاربة والتونسيين والجزائريين ، واحتل غلال الفاسى ، ومن بعده الحبيب بورقيبة مهام أمانة هذا المكتب ، وتحت اشراف الأمير عبد الكريم الخطابى . ولا شك في أن علاقات الأمير عبد الكريم الخطابى بهم كانت علاقة الأب المناضل بأبنائه المرفهين الفاترين ، إذ

أنه كان يصعب على هذا الأسد المناضل أن ينسى عملياته ومعاركه التي خاضها بالسلاح ، ودفع فيها الثمن غاليا من الدماء والأرواح ، لكي يقتنع بمجرد احتجاجات وطلبات وشكاوى سياسية ، ويشاهد خوف هذا الزعيم أو ذاك من استخدام الجهاد والسلاح من جديد في ميدان تحرير بلاد المغرب . ولا شك كذلك في أن مجيء بعض العناصر الجزائرية وانضمامها الى هذا المكتب ، وعملهم بطريقة ثورية أكثر من طريقة زعماء تونس والمغرب السياسيين ، هي التي كانت تعتبر أملا أمام الأمير عبد الكريم الخطابي ، لعودة الحركة الوطنية التحررية الى ما كانت عليه ، وفي أيدي رجال أحرار مجاهدين .

وكانت الأمور تتطور بسرعة في القاهرة في ذلك الوقت ، نتيجة لزيادة ظهور المتناقضات داخل التشكيلات السياسية المصرية نفسها ، وخاصة فيما يتعلق بتعدد الأحزاب ، وعلاقتها ببعضها ، وعلاقتها بالقصر ، أو بسلطة بريطانيا في المنطقة . وكانت روح الثورة تزداد تدمرا في نفوس الأحرار المصريين ؛ وخاصة عند تلك الحفنة من الرجال التي كانت قد شاهدت مهازل حرب فلسطين ، وخرجت من بلادها لكي ترى المصائب ، وتقرر ضرورة العمل على تغيير الأوضاع ، ولو بالقوة . وكانت الثورة في القاهرة ، وبداية التحرير ، سواء من النفوذ الأجنبي ، أو من الفساد الداخلي . وظهرت مجموعة من الرجال الثوريين ، يؤمنون بالمساواة ، ويهدفون الى العدالة ، ويحاولون تحرير أنفسهم وبلادهم ، ومساعدة اخوانهم وأبناء أعمامهم ، على الوصول الى نفس النتائج ، وفي تكامل بين البلاد العربية كلها .

وإذا كانت السنوات الأولى للثورة المصرية بعد سنة ١٩٥٢ قد عجزت عن اظهار الثورة المصرية في شكلها الواضح ، ونتيجة لانشغال الثورة بالمتناقضات الداخلية ، وبالأعداء الخارجيين ، الا انه سرعان ما وضحت ملامح هذه الثورة التحررية الوحدوية ، وخاصة بعد أن

أعلنت الجمهورية ، وأصبح التحرير هو شعار القاهرة ، الذي اتخذه الرجال الأحرار شعارا لهم ، والذي امتد بسرعة من المحيط الى الخليج . وإذا كانت القاهرة قد أنشأت لنفسها « هيئة التحرير » فسرعان ما ظهرت « جبهات التحرير » للمغرب الأقصى وتونس وللجزائر ، ولكل اقليم عربي صمم أبناءه على الوصول الى الحرية . وساعد كل ذلك على تحول مكتب المغرب العربي الى مجموعة هيئات تحرير ، خاصة بكل من تونس والمغرب والجزائر .

ولقد كان للسياسة التي اتبعتها الدول الاستعمارية ، وخاصة فرنسا ، في بلاد المغرب العربي ، وعملها على التفريق بين اقاليم هذه المنطقة - علاوة على درجة نضج ، ومراحل نمو الحركات الوطنية ، والقيادات السياسية الموجودة هناك - أثر على وجود نوع من عدم التوافق بين حركات هذه الجبهات ، التي قامت لتحرير المغرب العربي ، والتي كان الأمير عبد الكريم الخطابي أبا روحيا ، ومرشدا سياسيا وعسكريا لها .

كانت الحركة الدستورية الجديدة في تونس ، والتي نشأت ونمت بقيادة الحبيب بورقيبة ، تمثل قطاعا متحررا من أبناء تونس ، تعلم أغلبهم تعليما غربيا ، وسبقوا في عملية كفاحهم السياسي معركة الدستور على معركة الاستقلال ؛ أي بمعنى آخر اختار أعضاء هذه الحركة - وهم من الطبقة المتوسطة وأبناء التجار والموظفين - سلاح السياسة والمفاوضة والاحتجاج ، مع المظاهرات والاضرابات ، وسيلة يصلون عن طريقها الى اجبار فرنسا على تحديد العلاقة بين الحاكم والمحكوم في البلاد . وكان تعليمهم الغربي ، واشتغال عدد كبير منهم في القانون ، يجبرهم كذلك على محاولة تحديد الأوضاع والحقوق والموافق ، حتى وان كان ذلك بين الحاكم والمحكوم في تونس نفسها ، وقبل أن يحددوا علاقاتهم بالدولة صاحبة الحماية . وكان اعتمادهم على الاضرابات واقفال الحوانيت يعتبر سلاحا من أسلحة الطبقة الوسطى دون غيرها . وكان هذا يضعف الحركة

الدستورية في تونس ، ويجبرها على الالتجاء من وقت لآخر الى الطبقة الشعبية ، ولكن على أساس تكتيكي ، وفي معارك معينة ، ودون أن يسمح لها القادة بالمشاركة في القيادة أو الاستمرار في العمل لفترة قد تهدد سيادة ونمو الطبقة الوسطى .

وكان الأمر يشبه ذلك الى حد بعيد مع حزب الاستقلال في المغرب ؛ ذلك الحزب الذي ساعد محمد الخامس كثيرا على نشأته ؛ ولكنه جمع معظم رجاله من بين أبناء الطبقة الوسطى ، الذين يعملون بالتجارة كذلك ، أو الذين يملكون من الأراضي والقطعان . إلا أن حزب الاستقلال في المغرب الأقصى قد سبق معركة الاستقلال على معركة الدستور . ولا شك أن ملك المغرب بصفته أميرا للمؤمنين ، وفي نفس الوقت ملكا للمغرب جعل أبناء الطبقة الوسطى لا يتطلعون الى سلطاته ، والنمو على حساب هيئته . ولكن حركة الاستقلال في المغرب الأقصى خشيت على نفسها كذلك من الطبقة الشعبية ، وخشيت من استخدامهما في حركات واسعة ، قد تؤدي الى نزع السلطات من أيديها ، وتحولها الى أيدي الطبقة الكادحة . ولذلك فان حزب الاستقلال قد تمركز في المدن ، وهى المراكز الثقافية والحضرية في الاقليم ، وحاول أن يفرض نفوذه وسيطرته على المناطق الجبلية ، وباسم الاستقلال .

أما بالنسبة للجزائر فان الاحتكاك الطويل بالاستعمار الفرنسي كان قد قضى على الطبقة الاقطاعية الحاكمة ، والتي كانت تتمثل في حكومة النيابة الجزائرية ، ثم كان بعد ذلك ورود الآلاف من المتوطنين الفرنسيين ، عاملا مميئا للطبقة الوسطى الجزائرية . وكان لاستمرار الثورات في الجزائر والاحتكاك الطويل والمستمر مع الاستعمار ، أثره في جعل الجزائر تظهر في شكل مادة ثورية متمازجة ومتماثلة ، ويقوى من عنصرها الثورى ، ومن كفايتها وفعاليتها في الثورة التحريرية القادمة .

ولا شك أن الأمير عبد الكريم الخطايبى كان يعلم الفرق بين

العناصر والقيادات التى عملت معه ، وبتوجيه منه في القاهرة . ولا شك أن ذلك كان هو السبب الأساسى في اقتراب وجهات نظره من الجزائريين .

ولقد واصلت جبهة تحرير تونس مجهوداتها ، وبمساعدة جامعة الدول العربية ، لعرض قضية تونس على الأمم المتحدة ، وحتى على مجلس الأمن . وكذلك قامت جبهة تحرير المغرب بنفس العملية . وزاد ذلك من حنق فرنسا ، ومن تشبثها ، وأدى الى تجمد سياستها ، وحتى تجمد تفكيرها . واستخدمت فرنسا الشدة والعنف ، سواء في تونس أو في المغرب الأقصى ، واستخدمتها مع الجميع ، واستخدمتها حتى مع محمد الخامس ؛ وهدفت الى التخلص منه نفيه عن البلاد . وكان ذلك سببا كافيا لاشعال الثورة في المغرب اله بى ، ولظهور البيانات ، وبدء الحركة المسلحة لتحرير البلاد من المحتلين الأجانب .

صدرت النداءات من اذاعة القاهرة ، ومن صوت العرب الى أبناء المغرب العربى ، بمقاومة الفرنسيين بكل وسيلة ممكنة ، وبقوة السلاح . وكانت هذه هى البداية . وبدأ التنظيم بالنسبة للمغرب الأقصى ، وأجبر ذلك تونس على التحرك ، وفي نفس الاتجاه .

واذا كان علال الفاسى قد بقى في القاهرة في ذلك الوقت ، يسترشد بآراء وتوجيهات الأمير عبد الكريم الخطايبى ، فان حركة منظمة قد قامت الى جانبه لتزويد المغرب بالأسلحة والذخائر ، والعمل على تنظيم الرجال في المقاومة ، وتنظيم جيش التحرير المفرى .

واذا كان الحبيب بورقيبة قد بقى كذلك في القاهرة ، فان حركة منظمة أخرى قد قامت الى جانبه ، وعملت على تزويد تونس بما يلزمها من أسلحة وذخائر ، ولتنظيم رجال المقاومة وجيش التحرير التونسى داخل تونس نفسها .

وكانت هذه الحركة تعرف أن من واجبها النزول الى معارك مسلحة ضد الفرنسيين ، سواء في المدن أو في البادية . أما بالنسبة للمدن فقد أخذت هذه الحركة لنفسها اسم « المقاومة » وكان عليها أن تقوم بالقاء القنابل ، وعمليات النسف ، والتنظيم ، والاتصال بين الوحدات المجاهدة داخل المدن ، وفي تكامل مع عمليات جيوش التحرير ، التي بدأت في التسليح ، وفي تنظيم صفوفها في البادية .

وأشرف صالح بن يوسف على عملية التحرير في تونس ، وكان من السهل وصول الأسلحة والذخائر الى هذا القطر العربي ، سواء عن طريق ليبيا والصحراء ، أو عن طريق السواحل ، أو حتى عن طريق الجو ان استلزم الأمر ذلك . وكان من السهل كذلك اعداد قوات الفدائيين وتدريبهم ، وفي أوقات قصيرة ، وكذلك تدريب الضباط في أى منطقة من المناطق المتحررة في العالم العربي ، سواء في العراق ، أو في سوريا ، ولكن على الأخص في مصر .

وكذلك أشرف الدكتور الخطيب على جيش التحرير المغربي ، في نفس الوقت الذي كان يعمل فيه جراحا في طريق مديونة في الدار البيضاء ، وتحت سمع سلطات الحماية الفرنسية وبصرها ؛ ورغم بطشها . وكان الدكتور الخطيب شابا ثائرا ، وكان صهرا للأمير عبد الكريم الخطابي .

ولقد أشرف الأمير عبد الكريم الخطابي من القاهرة على كل هذه العمليات ، وأقام بتوجيهها وباعطاء النصيحة لها . وكانت صلاتهم بقيادة الثورة المصرية دعامة كبرى لهذه الحركات التحررية ، سواء أكان ذلك من الناحية المادية أم من الناحية المعنوية .

ولقد أفادت هذه القيادة السياسية والعسكرية ، قيادة الأمير عبد الكريم الخطابي ، من جميع الامكانيات والمواقف السياسية الموجودة أمامها ؛ أفادت من وجود طرق مواصلات ، ودروب في الصحراء ، لتزويد المقاتلين بما يلزمهم من اخوانهم العرب . وأفادت

من وجود الطرق البحرية وسفن الصيد وغيرها ، لتزويد جبهات التحرير وجيوشها في المغرب الأقصى بالامداد اللازم . كما أفادت من ذلك التنافس والصراع القائم بين فرنسا واسبانيا لتسهيل العملية ، وخاصة بالنسبة للمغرب الأقصى ، والتي كانت أقاليم الجزائر تفضلها عن بقية أقاليم العالم العربي ، خاصة وأن الثورة الجزائرية لم تكن قد أعلنت بعد .

وكان العداء الفرنسي الاسباني الذي نتج بعد استيلاء الجنرال فرانكو على الحكم يعتبر عاملا في صالح حركة التحرر الوطني . وكانت اسبانيا تمارس سلطات حمايتها على المنطقة الشمالية من المغرب باسم سلطان البلاد ، والذي يمثله هناك خليفة يقوم هو بتعيينه . وحين قامت فرنسا بنفى محمد الخامس ، احتجت اسبانيا بأن فرنسا لم تشاورها في الأمر ، ثم أعلنت أن خليفة السلطان محمد الخامس في المنطقة الشمالية هو الممثل للسلطة الشرعية في المنطقة ، وبصفقتها مستمدة من محمد الخامس . وكانت هذه صفقة جريئة من اسبانيا لفرنسا ، وتهديدا لسياسة الشدة الفرنسية ، في كل أقاليم المغرب العربي . ولذلك فان الأمير عبد الكريم الخطابي قد أفاد من هذا الموقف ، ومن أجل حركة التحرر ، وقام باستغلال المنطقة الشمالية من المغرب الأقصى لاقلاق الفرنسيين في المنطقة الجنوبية . وشهدت هذه المنطقة ، والتي تشتمل على الريف ، والتي يسكن في وسطها بنوورياغل وأبناء يحيى ، مرور قوافل الأسلحة والذخائر ، وتجميع قوات المجاهدين وتدريبهم ، لتكوين فيالق جيش التحرير المغربي .

أما بالنسبة للجزائر ، فلا شك أن القيادة السياسية التي كانت موجودة في ذلك الوقت ، والتي كانت لها فاعلية ، كانت هي قيادة مصالي الحاج ، الذي تحولت حركته العمالية والشعبية الأولى الى حركة « انتصار الحريات الديمقراطية » ؛ هذا علاوة على زعامة فرحات عباس « لحزب البيان » ، والذي كان يمثل مجموعة من

التعلمين ومن أبناء الطبقة الوسطى النامية . وكان حزب انتصار الحريات هو الذى يشتمل على العناصر المكافحة المناضلة ، ويشتمل على كثير من العمال ، وكثير من العناصر الشابة التى تفضل الجهاد . وجاءت عملية نفى محمد الخامس والبدء فى المقاومة فى كل من المغرب الأقصى وتونس لكى تدفع الجزائر دفعا صوب العمل كذلك ؛ وهزت التنظيمات السياسية الجزائرية بعنف ؛ وأدت الى ظهور جبهة التحرير الوطنى الجزائرى .

حقيقة أن مصالى الحاج كان يتمتع باسم وهبة قديمة ، ولكن تقدمه فى السن ، وتجاربه ، جعلته يفضل حتى ذلك الوقت استخدام السياسة والمفاوضة وسيلة للوصول الى تحقيق أهدافه مع فرنسا ، حتى وأن كان ذلك على مراحل . وحينما زاد ضغط الأحداث ، أظهرت بعض العناصر الشابة رغبتها فى التحرك ، وفى تكامل مع كل من جبهات التحرير فى تونس وفى المغرب . وخشى مصالى الحاج على خروج الأمر من يديه ، خاصة وأن هذه العملية كانت ستؤدى الى انشاء تنظيمات جديدة ، ومسلحة ، وتحدث بلغة أخرى تختلف عن لفته ، وهى لغة السلاح ، وستكون فى أيديها الوسائل الفعلية التى ستمكنها من العمل . ولذلك فانه قد أصر على سلطانه ، وبشكل يتعارض مع استمرار هذه الحركة التحررية ، وفى صالحه هو . وكانت العناصر الشابة على اتصال بالقاهرة ، وبمكتب المغرب العربى فيها ، وبالأمر عبد الكريم الخطابى . وحين جمد موقف مصالى الحاج ، وقرر فى مؤتمر بروكسل التخلص من هذه العناصر الشابة ، أعلنت هذه العناصر فى يوليو سنة ١٩٥٤ خروجه هو عن الحركة ، وقررت العمل ، وفى توافق مع بقية جبهات التحرير فى المغرب العربى . وكان هذا هو ميلاد جبهة التحرير الوطنية الجزائرية .

وأخذت جبهة التحرير الجزائرية فى الاستعداد للمعركة ، وبالتنظيم جديد ، وبفعالية كبيرة . وكان يوم فاتح نوفمبر سنة ١٩٥٤ هو يوم اعلان الثورة ، بل هو ساعة الصفر لمعركة التحرير المسلحة

فى الجزائر . وكانت هذه صدمة كبيرة لفرنسا ، التى اعتقدت فى امكان اعتمادها على « المقاطعات » الجزائرية لفرض نفسها بالقوة على كل من تونس والمغرب ؛ وفكرت حتى فى استخدام القوى البشرية الجزائرية ، واستغلالها ، فى عملية كبت الحركة التحررية فى الاقليمين المغربيين المجاورين . ولا شك أن اعلان ثورة الجزائر كان عاملا فعلا أجبر فرنسا على تسوية موقفها ، واعادة النظر فى علاقاتها مع كل من تونس والمغرب ، حتى وإن كان ذلك على مراحل ، وحتى اذا ما اشتمل على نيات بعيدة للتفريق بين الاخوان المجاهدين ، وتجميد الأوضاع ، أو تحذيرها ، فى كل من تونس والمغرب ، حتى تتمكن من السيطرة على الجزائر ، ثم تعود بعد ذلك لاعادة فرض نفسها على كل من تونس والمغرب .

ولكن فرنسا واجهت هذه المرة رجالا مصممين على انتزاع حقوقهم بالقوة ، معتمدين فى ذلك على قوة ايمانهم ، وعلى قوة سلاحهم الذى يحصلون عليه من اخوانهم ، ومن أصدقائهم ، وحتى من أعدائهم ، وحتى من الشيطان .

وكانت الخطة التى وضعت بتوجيه من الأمير عبد الكريم الخطابى لرجال التحرير فى أقاليم المغرب العربى الثلاثة تتلخص أولا وقبل كل شئ فى الاكثار من فتح جبهات التحرير ضد فرنسا ، اذ أن القضاء عليها سيرغم اسبانيا على الانسحاب ، ودون كبير مقاومة ، بل ان هذه الخطة ستسمح للمجاهدين المغاربة بالاستناد الى اقليم سهل عليهم الحركة ، ويسهل عليهم الامداد والتسليح ، ولا يمكن للسلطات الاستعمارية الاسبانية أن تبقى فيه طويلا بعد اجبار فرنسا على الخروج من مناطق حكمها . وكانت هذه الخطة تشتمل بعد ذلك على ضرورة عمل كل جيش تحرير فى اقليمه ، وفى تعاون وتكامل مع بقية جيوش التحرير فى الأقاليم المجاورة ، ومعنى ذلك نزول جيش التحرير الذى ينتهى من عمله فى اقليمه الى الاقليم المجاور للعمل فيه ، ما دامت الوحدة بين الأقاليم الثلاثة هى هدف ، بل

أمل يراود الجميع . ولا شك أن هناك شرطا كان الجزائريون قد تقدموا به ، وكان حبيبا الى قلب وعقل الأمير عبد الكريم الخطابي ، وهو أن عملية التحرير السياسي ، وإخراج المحتل المستغل الأجنبي لم يكن الا خطوة أولى ، ومرحلة من مراحل تحرير شعب هذه الأقاليم من الاستغلال الداخلي ، والوصول الى تطبيق عدالة اجتماعية ، لا تعترف بالاستغلال الداخلي ، أو الامتيازات الطبقية . وسيؤدي كل ذلك في النهاية الى تحرير البلاد سياسيا ، واقتصاديا ، وإلى وحدتها مع بعضها ، ومع بعض اخوانها في المشرق العربي .

وإذا كانت هذه السياسة إقد نجحت في المراحل الأولى منها ، وكما أشار بها الأمير عبد الكريم الخطابي ، واعتنقها رجال التحرير المخلصين ، الا أن تطور الأحداث ، وتطور موقف القوى من بعضها أدى الى تعديل في نتائجها ، وخاصة حين ظهرت الفروق واضحة بين السياسة والجهاد .

الفصل السابع عشر

بين السياسة والجهاد

تأزم الموقف في فرنسا ، وخشيت حكوماتها الضعيفة المتتالية من تمكن جبهات تحرير المغرب العربي من النزول الى معارك متكاملة ومنسقة في الأقاليم المغربية الثلاثة في نفس الوقت ؛ وزاد هذا الخوف ، مع ارتفاع صوت العرب من القاهرة ، مناديا أحرار المغرب بامتشاق السلاح ، والكفاح حتى النهاية . وشعرت فرنسا بوجود تنظيم سياسي وعسكري يجمع بين قيادات التحرير في بلاد المغرب ، ولمحت مكانه في القاهرة ، كما لمحت مجهود الأمير عبد الكريم الخطابي فيه . وكانت هذه المشغولية العسكرية الجديدة بالنسبة لفرنسا تتطلب منها زيادة التضحيات في الرجال والأموال ، وفي وقت لم تكن فيه مشكلة الهند الصينية قد وصلت الى حل بعد ؛ بل ان فرنسا كانت تتنبأ لنفسها هناك ، في الشرق الأقصى ، بهزيمة منكرة على أيدي قوات القيات مين . واضطرت فرنسا الى استخدام السياسة لمحاولة كسب الوقت في شمال افريقية ، وعلى أساس مهادنة بعض العناصر المحاربة ، أو بعض العناصر السياسية في هذا الاقليم أو ذاك ، حتى تتمكن من الاحتفاظ بالجزائر قبل كل شيء ، وبصفتها قاعدة يمكن منها إعادة النفوذ الفرنسي على كل من تونس والمغرب . وكان هذا هو الأساس لزيارة منديس فرانس لتونس ، وتصريحه هناك برغبة حكومة باريس في إنهاء الحماية الفرنسية على تونس ، وفي الاعتراف باستقلال الاقليم ، وأن كان ذلك على أساس الاستقلال الداخلي ، في نطاق « التكامل مع فرنسا » . وكانت هذه السياسة تهدف

التفرقة بين تلك العناصر التي توافق على انصاف الحلول ، حتى وان ادعت أنها خطوة تتلوها خطوات للتدرج على السلم ، وللوصول الى الاستقلال التام ، تفرق بين هذه العناصر والعناصر الأخرى المجاهدة ، التي لا تقبل في الحق مساومة ، ولا ترضى الا بالاستقلال الذي ينتزع بقوة السلاح من المحتلين الأجانب . وكانت هذه السياسة هي أساس ذلك الاختلاف الذي سيزداد وضوحا مع الزمن ، بين كل من الحبيب بورقيبة وصالح بن يوسف .

ولم تكن هذه السياسة وخطرها بعيدين عن تفكير الأمير عبد الكريم الخطابي ، ورأى خطرها ، وتنبأ بجسامة هذا الخطر ، وحذر منه ؛ واستقر رأيه ورأى قادة جبهة التحرير التونسية على ضرورة الاحتفاظ بقوات جيش التحرير التونسي ، وبأسلحتها وتشكيلاتها في الميدان ، في نفس الوقت الذي يقوم فيه الحبيب بورقيبة بمفاوضة الفرنسيين ، وانتزاع الحقوق منهم خطوة بخطوة ، كما كان ذلك حبيبا الى قلبه . وكان هذا التوجيه يفيد الحركة الوطنية التحررية في تونس ، من حيث أنه يساندها في مفاوضاتها السياسية مع فرنسا بقوة ضغط حربية ومادية لا يمكن لأحد أن ينكر قوتها ؛ وكان الاحتفاظ بجيش التحرير التونسي يعتبر في نفس الوقت وسيلة للضغط على فرنسا في الجزائر ، ويشتت قواتها على خطوط قتال طويلة ، وعلى جبهات متعددة ، وفي صالح جيش التحرير الجزائري . ولذلك فان عناصر الجهاد الجزائرية كانت أقرب ما يكون من سياسة عبد الكريم الخطابي في هذه النقطة بالذات ، وأكثر من غيرها .

ولا شك أن الأمير عبد الكريم الخطابي قد أصابته خيبة آمال كبيرة ، في الوقت الذي تمكن فيه الحبيب بورقيبة من الاتفاق مع فرنسا ، وفي نفس الوقت الذي عمل فيه على القضاء على جيش التحرير التونسي ، وانقلب على صالح بن يوسف ، واعتبره عدوا لكونه من رجال التحرير البارزين ؛ اذ أن هذا الموقف كان ضربة

وجهت الى اخوانه الجزائريين ، الذين كانوا يحتاجون الى كل مساعدة ، وهم في الميدان . ولقد استتبع « تغيير المواجهة » هذه من الحبيب بورقيبة قيام صراع مسلح بين الجيش التونسي الحديث ، وبين وحدات جيش التحرير التونسي الموجودة في الجنوب ، وفي صالح قوات الاستعمار ، واستتبع هذه العمليات قيام الحبيب بورقيبة بفرض الرقابة على الطرق والممرات الصحراوية ، والتي كانت تمر فيها قوافل وجماعات تزويد الجزائريين بالأسلحة والذخائر عبر ليبيا وجنوب تونس .

ومع ازدياد غيرة الحبيب بورقيبة على سلطاته ، وخشيته على نفسه من رجال التحرير التونسيين ، أخذ موقفا صريحا ضد قوات التحرير في تونس ، وبشكل سمح للفرنسيين بحرية حركة واضحة في الجزائر . ومع استمرار الزمن ، وحاجة الحبيب بورقيبة الى المعونات المادية والفنية من فرنسا ، أخذ في اظهار انفصاله أو عدائه من وقت لآخر لعمليات جبهة التحرير الجزائرية . واذا كان الأمير عبد الكريم الخطابي قد شعر بخيبة أمل في زعيم تونس السياسي ، فمما لا شك فيه أن خيبة الآمال هذه قد أصابت كثيرا من رجالات العرب ورجالات التحرير ، ومنذ ذلك الوقت . وعلاوة على كون هذا الاتجاه « البورقيبي » كان يعنى التخلي عن اتفاقياته مع اخوانه المغاربة ، فانه كان يدل على خروج عن الصف ، وهروب من الميدان ، وأنانية تعتبر شخصية له أكثر من كونها تعبيرا عن اقليم تونس . وأصبح على الجزائريين أن يواصلوا عملياتهم وهم يفضون الطرف عن الاساءات التي أصابتهم من قيادة تونس الجديدة .

أما بالنسبة للمغرب فان فرنسا قد عجزت فيه عن مواجهة قوات التحرير ، وكذلك جماعات المقاومة ، وخاصة بعد أن سيطر جيش التحرير المغربي على الأقاليم الشمالية والوسطى من البلاد ، وانفض كثير من المغاربة من حول سى تهاى الجلاوى وغيره من

باشوات وأعوان الحماية الفرنسية . وقررت فرنسا امكانية عودة محمد الخامس الى عرشه ، وان كانت قد حاولت في هذه العملية أن تستر تهافتها ، وبشكل يحفظ لها ماء وجهها . وأرسلت فرنسا الجنرال كاترو الى مدغشقر ، للتفاهم مع محمد الخامس وافهامه أساس العملية . وكان محمد الخامس كريما ، اذ أنه وافق على أن يحتفظ لفرنسا بماء وجهها . وجاءت فرنسا بمحمد الخامس الى تيس ، ثم استضافته في فندق هنري الرابع في سان جرمان بجوار باريس . وأمام حضور سيد البلاد اضطر رجال التحرير الى التراجع . وكان محمد الخامس يرغب في سرعة العودة الى بلاده اذ أنه كان يعلم أن أى تصريح يصدر من فرنسا في ذلك الوقت لا يعنى الا الاعتراف بالاستقلال الفعلى للبلاد . وكان مجيء محمد الخامس الى بلاده يعنى انهاء نظام الوصاية أو الحماية ، وممارسة الحكم المستقل في البلاد . وكان استقبال محمد الخامس استقبالا شعبيا منقطع النظير ، ولكنه كان عاملا فعلا في تطور الأوضاع والعلاقات بين القوى الموجودة في المغرب في ذلك الوقت . وظهر رجال جيش التحرير المغربى في هذه الاحتفالات كرجال قوات وطنية . حقيقة أن جيش التحرير المغربى ظل يسيطر على مناطق بأكملها من البلاد ، وكان لذلك وسيلة ضغط وطنية هامة على الفرنسيين ، أجبرتهم على الاعتراف بانهاء نظام الحماية ، والاعتراف باستقلال المغرب ، ودون هذا التكامل غير الواضح مع فرنسا . ولكن علينا ألا ننسى أن عملية بناء الدولة المغربية الحديثة كانت تلقى على هذه الدولة بمسؤوليات جديدة ، وخاصة في ذلك الوقت ، الذى لم تكن فيه العلاقات الفرنسية المغربية قد استقرت بعد . وكان استمرار الثورة في الجزائر يعتبر تهديدا واضحا لكل من النفوذ والمصالح الفرنسية ؛ وكان أى تعاون ممكن بين جيش التحرير الجزائرى ، وجيش التحرير المغربى ، يهدد بالاساءة الى العلاقات بين فرنسا والمغرب من جديد . وكان المغرب يحتاج في ذلك الوقت الى انشاء جيش وطنى « ملكى » . ولذلك

فانه قرر تصفية جيش التحرير المغربى ، وادخال العناصر الصالحة « واللائقة » منه في هذه القوات الملكية الجديدة . وحاولت الحكومة المغربية بهذه العملية أن تمارس سلطات سيادتها الداخلية كاملة ، وأن تمنع قيام أى مشكلات مع فرنسا الصديقة ، وتنشئ جيشها الوطنى . ولذلك فان السياسة هنا قد سيطرت كذلك على القوى الفعلية للتحرير ، وبشكل ترك الجزائر من الناحية الفعلية تواجه بمفردها عمليات القمع والتطهير ، وعمليات الإبادة والتدمير ، التى كانت القوات الاستعمارية الفرنسية تقوم بها بطريقة منتظمة ومستمرة . وكانت هذه السياسة الجديدة حقا من حقوق المغرب ، ولكنها تعارضت كذلك مع ما اتفق عليه رجال التحرير المغاربة مع بعضهم ، ومع الأمير عبد الكريم الخطابى .

وكانت الفترة السابقة لعودة محمد الخامس الى المغرب قد شهدت كذلك سوء العلاقات بشكل واضح بين الوطنيين والفرنسيين في موريتانيا ، وانضم حرمة بابانا الى رجال التحرير في القاهرة ، وظهر بعد أيام عند وادى درعة على رأس رجاله من جيش التحرير الموريتانى ، من رجال الرقيبات ، وأبطال الجنوب . ولكن سيطرة الوزارة المغربية على جيش التحرير الموريتانى منعه من أن يعمل في مناطق المغرب الجنوبية ضد القوات الفرنسية هناك ، وضد هذه القوات في الجزائر . ومارست حكومة المغرب كذلك حقوق سيادتها في هذا القطاع ، واستندت الى حقوقها التاريخية في موريتانيا ، والى سلطتها كدولة ، في منع قوات جيش موريتانيا من العمل ، ثم في تصفية قوات هذا الجيش .

ولا شك أن كل العالم الحر قد فرح كثيرا باستقلال المغرب ، الا أن رجال التحرير الموجودين في الميدان قد شعروا بخيبة أمل واضحة نتيجة لذلك الانقسام الذى حدث بين العناصر السياسية وعناصر الجهاد والتحرير ، وخاصة في تونس والمغرب ، وعلى حدود موريتانيا . وكان انتصار العناصر السياسية هناك يعنى حرمان

الجزائر من عوامل ضغط ، ومن قوى مساعدة ، كانت الجزائر في أشد الحاجة إليها في وقت تفرس فيه الاستعمار في بلادها .

وشهد الأمير عبد الكريم الخطابي من القاهرة تطورا واضحا في الأمور ، وتزايدا في الضغط على الجزائر في أثناء ثورتها . وتحول مكتب تونس ومكتب المغرب في القاهرة الى مكاتب تهتم بالطلاب الوافدين من هذين الاقليمين المغربيين ، بعد أن حصلت أقاليمهم على الاستقلال . وأصبحت الجزائر هي القوة الوحيدة والنمالة الباقية داخل هيئة تحرير المغرب العربي ، وحظيت أكثر من غيرها بلقاءات مع الأمير عبد الكريم الخطابي ، وبنصائح وتوجيهات غالية من أمير ورجل ، خير الرجال وخبر السياسة وخبر الحرب .

ودخلت تونس في مشكلاتها الجديدة المتعلقة ببنين دولتها ، وبهجمات الفرنسيين على حدودها ؛ وحاولت أن تدعم من استقلالها ، ومارست تجربتها الخاصة مع جيرانها المغاربة ، واخوانها العرب ، وبقية الدول ذات المصالح الاقتصادية والعسكرية فيها ؛ واحتاجت الى تأييد في مواقفها من اخوانها ، وخاصة حين قامت القوات الفرنسية في الجزائر بهجماتها على قرية سيدى يوسف . ووقف رجال التحرير الجزائريين معها في كل محنة ، وكان ضيفا الشرف في حفلات استقلال تونس وتسلمها لقاعدة بنزرت : أحمد بن بيللا وجمال عبد الناصر .

أما بالنسبة للمغرب فانه قد حرم لبعض الوقت من ذلك التأييد والمعاونة التي كان في وسع اسبانيا أن تقدمها له بطريق مباشر ، أو بطريق غير مباشر من غيره من البلاد العربية الحرة . وكان ضم المنطقة الخليفية الى بقية أقاليم المغرب يعنى انهاء الاتفاقيات ، ووقف التعاون مع اسبانيا ، في الوقت الذي امتد فيه النفوذ والمصالح الفرنسية ، مع حكومة المغرب الحديثة ، شمالا في المنطقة الخليفية . وكم من رجل من أبناء الريف تساءلوا عما اذا كان الهدف من عملية التحرير هو اخراج فرنسا واسبانيا ، أو الاتفاق مع فرنسا

على أن يمتد نفوذها الادارى والثقافى والفنى على كل المغرب ، بما فيه المنطقة الشمالية وبلاد الريف . واذا كان المغرب يأمل في الوصول الى اتفاقيات ثابتة ، أو الحصول على معونة من فرنسا ، فان آماله قد خابت ، واضطر فيما بعد الى أن يعتز بواجهة بلاده الكبيرة على المحيط الأطلسي ، ويحاول أن يأخذ لنفسه شخصية تواجه أمريكا ، والعالم الجديد .

والمهم من كل ذلك هو أن رجال التحرير في الجزائر قد بقوا بمفردهم في الميدان . واحتاجوا أكثر من ذي قبل الى مساندة القاهرة وتأييد رجالها - ومنهم الأمير عبد الكريم الخطابي - لهم في جهادهم وفي محتهم .

وواصل رجال جبهة التحرير الجزائرية عملهم ، سواء أكان ذلك في نطاق العمل الدبلوماسي في الخارج أم في نطاق العمليات الحربية داخل الجزائر نفسها . وأصبحت القاهرة هي المركز الأول لهذه الجبهة في الخارج ، وانتشر منها رجال الجبهة وقوادها ، في جميع بلدان العالم ، يشرحون قضيتهم ، أن احتاج الأمر الى شرح ، ويطلبون العون والتأييد من الحكومات الصديقة والمتحررة . وعمل في هذا النطاق كل من أحمد بن بيللا ومحمد خيضر ومحمد يزيد والحسين آيت أحمد وبوضياف والأحول ومحمد أمين الدباغين وأحمد بودا وأحمد توفيق المدني والدكتور أحمد فرنسيس وفرحات عباس وعبد الرحمن قيوان وعبد الحميد نهري ومحمد بن يحيى ومحمد ابراهيم . وكان هذا يدل على أن جبهة التحرير الوطنية الجزائرية قد تألفت من جميع الاتجاهات السياسية الموجودة في الجزائر ، ولكن على أساس وضع خطة جديدة ، هي خطة التحرير التي كان من اللازم على الجميع أن يعملوا على انجاحها ، بغض النظر عن اتجاهاتهم ، وتشكيلاتهم السياسية الخاصة . وانقسم العمل في الجزائر على أساس وجود « جبهة تحرير » تتولى العمل السياسى ، « جيش تحرير » يتولى العمليات الحربية . واذا كانت

الجهة قد استقرت في القاهرة واسترشدت بأراء رجالها وتوجيه الأمير عبد الكريم الخطابي ، فإن « الجيش » كان هو المنفذ الفعلي لهذه السياسة في الجزائر .

وإذا كانت فرنسا قد نجحت في شغل كل من تونس والمغرب بمشكلات السيادة الخاصة بهما ، ومشكلات انشاء دولة مستقلة حديثة تبدأ في ممارسة سلطاتها ، فانها قد وجهت بذلك ضربة قوية الى رجال جهة التحرير الجزائرية ، وتفرغت لمواجهة جيوش التحرير الجزائرية في مناطقها المختلفة في البلاد . ورغم ذلك فقد ازداد ظهور تصميم أحرار الجزائر على مواصلة الحرب . فدفع ذلك العناصر اليمينية والمتطرفة في فرنسا الى التشبث بضرورة استخدام الشدة والعنف والقوة مع الجزائريين ، ووضع كل الامكانيات الممكنة في سبيل الوصول الى هذه الغاية .

وهكذا شهدت الجزائر وصول امدادات حربية فرنسية كبيرة ، اشتملت على وحدات و فرق بأكملها من الأسلحة البحرية والبرية والجوية ، وأخذت تبنى معسكراتها في طول البلاد وعرضها . وطلبت الحكومة الفرنسية احتياطي الجيش ، ووضعت نظاما معيناً لتدريب هؤلاء الرجال والشبان ، وأخرجت من بينهم جنوداً متطرفين ، لا يراعون قوانين الحرب ، ويحاولون اثبات رجولتهم أمام زملائهم القدماء بما يرتكبون من وحشية وغلظة ، حتى ان كان ذلك مع النساء والأطفال والشيوخ والأهالي العزل ؛ ما دام رجال التحرير يخبئون في معاقلمهم الى جوار الطرق وعلى الجبال . ونجح رجال الأعمال والرأسماليون واليهود في اجبار حكومة باريس على تنفيذ سياستهم الخاصة بضرورة الاحتفاظ بالجزائر ، وفي صالح حفنة من رجال الأعمال وكبار الملاك . وحتى الحزب الاشتراكي الفرنسي خضع لهذه السياسة ، وبشكل ساعد على علاقاته مع القاهرة ، ومع حكومة الثورة الموجودة فيها . وقامت كل من تونس والمغرب بمحاولة لعقد مؤتمر في تونس مع قادة الثورة الجزائرية ،

وذلك تمهيدا للتوسط بين رجال الثورة الجزائريين وفرنسا ، ومحاولة منهم لاعطاء فرنسا فرصة لستر عملية تقهرها بلباقة . وبعد أن حضر بعض زعماء الثورة الجزائرية الى الرباط ، وتباحثوا مع محمد الخامس ، استعدادوا للسفر الى تونس . وكانت ادارة المخابرات الفرنسية قد أعدت للأمر عدته ، واتفقت مع قائد الطائرة الفرنسي ؛ وبدلاً من أن تصل الطائرة المقللة للزعماء الى تونس ، وصلت الى مطار الجزائر ؛ ودفع زعماء الثورة الجزائرية الخمسة في أيدي السلطات الفرنسية . وكانت هذه العملية ضربة ثانية نجحت فرنسا في توجيهها الى ثورة الجزائر ، واحتاجت الثورة الى بعض الوقت لاعادة تنظيم قيادتها ؛ ودون أن تحصل على الكثير من العون والتأييد الا من الرجال الثوار ، ورجال التحرير . أما السياسة فقد كانوا يؤمنون دائماً بالاتفاقات ، ويوافقون في أغلب أحيانهم على أنصاف الحلول .

وكان لتزايد اشتعال الثورة الجزائرية ، وامتداد سلطتها في كل اتجاه ، وعلى جميع المناطق في الجزائر ، أثر في أن اتخذت السلطات الفرنسية هناك سياسة التخريب والتدمير والتعذيب والابادة ، وسائل لتحطيم معنوية ذلك الشعب المناضل ، واجباره على القاء السلاح ، أو التراجع عن معركته . ولكن هذه العمليات أدت الى زيادة صلابة أعواد المجاهدين ، وزادت من رفع روحهم المعنوية لكي يواصلوا المعركة . وأثبتوا بذلك أنهم فخر المغرب ، وفخر الأمة العربية ، ويمكنهم أن يباهوا غيرهم بأنهم أبناء مجاهدي الريف ، والجيل التالي لعملية كفاح الأمير عبد الكريم الخطابي ضد الاستعمار .

وكان الأمير عبد الكريم الخطابي في أيامه الأخيرة لا يأمل في شيء أكثر من رؤيته الاستعمار يخرج من بلاد المغرب العربي بأكملها ، وحقق الله له أمنيته ، إذ أنه سيسمع باستقلال الجزائر ، وانشاء الجمهورية الجزائرية قبل أن يوافيه أجله المحتوم في ١٤ نوفمبر سنة ١٩٦٢ ، ولكل أجل كتاب .

الفصل الثامن عشر

صفاته وأخلاقه

قد يعتقد من يقرأ سيرة الأمير عبد الكريم الخطابي ويعرف أعماله أنه زعيم عربى فارغ الطول جهورى الصوت ، له حركات تسكت أقوى المتحدثين أمامه . والواقع أن الأمير عبد الكريم الخطابي لم يكن له من هذه المقومات الكثير ؛ إذ أنه كان قصير القامة فى اعتدال ، وكان يكثر من الصمت ، ويفضل الصمت على الحديث ؛ كما أن صوته كان خافتا ، وبدرجة تجبر من حوله على السكون ، وتجبره على الانصات .

وكان الأمير عبد الكريم الخطابي من سلالة كريمة وشريفة ، واحتفظت لنفسها بزعامة المنطقة عبر قرون طويلة ، وكان آباؤه وأجداده هم أمراء قبيلة بنوورياغل ، واحتفظوا بالامارة فيما بينهم ، إذ أنهم كانوا أكثر خدمة للأهالى وللشعب ، وأقرب الى قلوبهم ، وأكثر دفاعا عن مصالحهم ، عن غيرهم من الشخصيات .

ولم تكن أسرة عبد الكريم الخطابي تعيش من عرق الأهالى ، أو تجبرهم على العمل والكدح لكى يعيش أفرادها فى رفاهية واضحة ؛ بل أن الرفاهية كانت أبعد ما تكون عن تلك السلالة المجاهدة التى عاشت على ظهور خيلها ، واحتلت مسئوليات القضاء لفض النزاع بين الأهالى ، واحقاق الحق ، حتى وإن كره الظالمون . وكانوا ، كسكان الجبال ، يمتازون بالتواضع ، ويمتازون بوضوح الرؤيا ، ولا يعرفون فى الحق اثنين . وكانوا يعترفون بالحق ، ويعلمونه ، ويؤيدونه ، إذ أن الحق كان من صفاتهم ، بل كان هو دينهم ، دين الحق ، دين الاسلام .

ومع هذا التواضع ، والاعتراف بالحق ، كانت أسرة عبد الكريم الخطابي تعتبر نفسها فى خدمة الأهالى ، وحسب المثل القائل « أمير انقوم خادمهم » ؛ وأدى ذلك الى اعتزاز الأهالى بتلك القيادة وتفانيهم فى خدمتها ، والاستماع الى مشوراتها ، بل السعى لطلب هذه المشورة ، وتنفيذها ، وكأنها أمر من الواجب اطاعته .

وكان الأمير من بيت كرم ، وهى صفة من صفات رجال الجبال ، الذين تضطربهم ظروف وأحوال المعيشة فى هذه المناطق الصعبة الى أن يحموا المستجير ، ويضيفوا الضال ، ويخدموا كل من ينزل عليهم ، ما دام يشبههم فى بساطتهم ، وحبهم للحرية ، واعتزازه بكرامته وشممه فى نفس الوقت . وكانت لحوم الضأن تكفى الجميع ، وحتى رغيف الخبز ، كان من السهل قسمته مع ضيف أو جار . وسمح ذلك لهذه القيادة التى يمكننا أن نسميها دون كبير خطأ ، بأنها ديمقراطية ، بل وانها شعبية ، بأن تتركز وتبنى سلطتها ونفوذها على قلوب الرجال ، فى نفس الوقت الذى تمارس فيه سلطات قيادتها ، وبصفتها خادمة للشعب .

وكان أبناء الريف وأبناء الجبال يمتازون بعشقهم للحرية ، واستماتتهم فى الدفاع عنها . وكان يكفى الفرد منهم أن يقف على سفوح الجبال وقممها ، لكى يرى نفسه قريبا من السماء ، مسيطرا على الطبيعة ، ومستعدا لتقديم الواجب لأى فرد يضل الطريق فى مسالك الجبال ، أو يطالب العون . وكان هؤلاء الرجال الأحرار لا يقدمون عليهم الا من يكبرهم سنا ، أو يمتاز عليهم برجاحة فى العقل ، وزيادة فى الحكمة ، وصلابة لمواجهة المواقف ، وحتى لمواجهة الطبيعة ، مهما كانت قاسية . وكانوا يقومون من أجل الانسان ، وفى سبيل الانسانية ، والتى قد تعجز عن مواجهة هذه الطبيعة القاسية فى تلك المناطق الجبلية الوعرة . ولا شك أن اختيارهم لقيادة آل عبد الكريم الخطابي لهم كانت فى نفسها شهادة لتلك

القيادة بأنهم أمراء ، اختارهم الرجال لقيادتهم ، ولتوجيههم ، وفي أصعب الظروف وأقساها .

وكما كان رجال الجبال يحاولون السيطرة على الطبيعة ، وانتقاذ الانسان من خطرهما ، فانهم كانوا يقومون بذلك بسليقتهم وبطبيعتهم ، التي تقرب من الفطرة . وجعلهم كذلك يعتزون بالاسلام ، وبصفته دين الفطرة . وهكذا امتازت حرية هؤلاء الرجال وديمقراطيتهم وشعبيتهم باعتزازهم بالاسلام ديناً ؛ وكانوا بذلك من المؤمنين المخلصين ، الذين لا يعرفون للاسلام بدىلاً . وجاءت الظروف الطبيعية ، مع أخلاق ذلك الشعب ، لكى تحترم القوة الفعلية ورجاحة العقل ، وتحترم القيم والمثل ، وترفض الخضوع والخنوع .

وكانت الطبيعة القاسية في الجبال تحتاج الى صفات أخرى من الشجاعة ورجاحة العقل والتصميم ، ومن العمل ، وفي سبيل الانسانية ، وباسم الله ، أكثر من احتياجها لطول القامة ، أو لارتفاع الصوت لكى يسيطر المتحدث على المتجمعين حوله من العباد . كانت طبيعة عمل ، وليس للحديث والخطابة فيها مكان كبير . وكانت القيادة التي نشأت في الاقليم تمتاز بالعمل ، ورجاحة العقل ، أكثر من اعتمادها على الفصاحة والخطابة . وكانت هذه هي صفات الأمير الشيخ والد عبد الكريم الخطابي ، وكانت هي نفس صفات الأمير عبد الكريم الخطابي .

امتاز عبد الكريم الخطابي اذن بقامة قصيرة وعادية ، ولكنه امتاز بحدة الذكاء ، وبالتصميم على العمل ، وبطريقة منطقية وبسيطة ، ولكن لها فاعلية في أى عملية يقوم بها .

وكان الأمير عبد الكريم حاد البصر ، كبقية أبناء الجبال ؛ وكان صغير العينين ، ولكن نظراته كانت ثابتة كنظرات النصور في الجبال ؛ وكان هذا يدل على سرعة تصميمه ، وعلى قوته في التنفيذ . وكان الأمير يرتدى الرداء المغربى العادى لكل الرجال في تلك المنطقة ، وهو الجلباب الصوف ، الذى يقيه البرد ، دون تمييز له عن

غيره من الرجال . وحين يسير الأمير كان من السهل على النظارة أن يعرفوا أنه هو الأمير ، اذ أن ذلك العرج البسيط في احدى قدميه كان يميزه عن غيره ومنذ ذلك الحين ، والوقت الذى قام فيه بمحاولة للقفز من أعلى أسوار سجن مليلة بعد أن كان الاسبانيون قد اعتقلوه هناك . واضطر ذلك الأمير الى أن يسير بمساعدة عصا ، حتى يتمكن من التغلب على تلك العاهة التي أنزلها به الاستعمارىون . أما في الحرب فقد كان الأمير عبد الكريم بسيطاً في شكله وملبسه وحركاته ؛ بل كان متواضعاً . وشهد المراسلون الحربيون لجريدة التايمز وجريدة الماتان ، الذين زاروه في مقر قيادته في أجدير ، بأن غرفته ، « غرفة ومكتب رئيس جمهورية الريف » ، كانت قاعة بسيطة وصغيرة ، ولا تشتمل الا على منضدة من الخشب ، وبعض الأرائك المغربية « الخشنة » وتمتلئ حوائطها بخرائط أركان الحرب الاسبانية الخاصة بمناطق العمليات في شمال المغرب . وكان الأمير يجلس في هذه القاعة مع أركان حربه ، ويعاملهم معاملة الاخوان والزملاء في المعركة ، في الوقت الذى كان يؤثر فيه على مستقبل امبراطوريتين : الاسبانية الهرمة ، وكذلك الامبراطورية الفرنسية ، التي كانت تسيطر في ذلك الوقت على ثلث سكان العالم . أما عن ثقافة الأمير فكانت هي الثقافة العربية الاسلامية في أبسط صورها ، ولكن في أجلى معانيها ، اذ أنه كان اقد تعلم العربية وبعض الحساب ثم العلوم الدينية في كل من مليلة وفاس . وكان أستاذاً ، أو فقيهاً في الشريعة ، وسمح له ذلك بتولى منصب القضاء في مليلة ، احدى قواعد الحكم الاسباني في شمال المغرب في ذلك الوقت . ولا شك أن ثقافته العربية الاسلامية ، علاوة على سلطات منصبه الذى احتله في القضاء ، جعله يعتز بنفسه كقاض فيصل ، وكحكم يحكم على عباد الله ، وبشريعة الله ، وباسم الله ؛ ولا شك أن ذلك قد أسهم اسهاماً كبيراً في اتمام شخصيته ، كقائد وزعيم يحكم في صالح شعبه الذى حاولت الدول الاستعمارية أن تهضم حقوقه .

ولقد أفاد الأمير عبد الكريم الخطابي من معاونة أخيه له ، وهو الأمير محمد الذي كان قد تعلم التعليم الغربى فى ملقه ، ثم تخصص فى مديرد فى هندسة المناجم والتعدين . وهكذا جاء أخوه ، كرجل عملى ، يمتاز بثقافة عصرية ، لكى يكمل الأمير ، كرجل من رجال العروبة والاسلام ، ورجل من رجال الفكر ، وفيصل فى الحق . واستعان الأمير عبد الكريم الخطابي بأخيه محمد أكبر استعانة ، وخاصة فى العمليات الحربية التى وقعت فى القطاع الغربى من منطقة الريف ، وفى منطقة الجبال ، ووجد الأمير عبد الكريم فى أخيه خير عون له فى العمليات الحربية ، وفى قيادة الرجال ، وفى تنفيذ الأوامر المتفق عليها .

وإذا كان بعض الكتاب الغربيين قد نظروا الى عبد الكريم الخطابي على انه رجل دنيا أو بمعنى أصح أنه يحاول الاشراف بنفسه على عملية استخراج خام الحديد من المناجم الواقعة قرب مليلة والحسيمة ، فانهم فى ذلك قد أخطأوا خطأ كبيرا ، إذ أن هذا الدافع لم يكن كافيا لكى يقوم الأمير بما قام به فى وجه اسبانيا ، بل كان من السهل عليه أن يتفق معهم على استغلالها، ولا يفسر أبدا عملية هجوم الأمير عبد الكريم الخطابي صوب الجنوب وصوب الأطلس ، ولكى يحتل تازا ويقطع خطوط مواصلات الفرنسيين فى سهول المغرب الغربية عن قواتهم الموجودة فى ذلك الوقت فى وجدة وتلمسان والجزائر . ولو كان الأمير عبد الكريم الخطابي من رجال الدنيا ، أو من رجال الاستغلال لوجد طريقا آخر للاتفاق مع المستعمرين ، وبصفتهم أكبر قوى استغلالية عرفها العالم حتى ذلك الوقت .

والواقع أن الأمير عبد الكريم الخطابي كان رجل مبادئ ، ورجل تحرير ، ولا يرغب فى رؤية تحكم الأجنبى المسيحى فى رقاب الأهالى ، وفى أقوات ومصائر عباد الله الصالحين .

وإذا كانت الدعاية الغربية قد حاولت اظهار الأمير عبد الكريم الخطابي على أنه يحاول فرض سلطة العناصر البربرية على العناصر العربية ، فان هذا الادعاء لا يثبت طويلا على المحك ، خاصة وأن الأمير ورجاله لم يكونوا يفضلون عربيا على عجمى الا بالتقوى . ومن السهل على الجميع أن يتصوروا وصول الأمير عبد الكريم الخطابي الى السلطة ، اذا ما رغب فى ذلك ، واذا ما تنازل عن مبادئه ، وخاصة فى تلك الفترة الواقعة بين الحربين العالميتين ، والتى نجحت فيها كثير من القيادات الثأوية فى التمرکز فى السلطة ، وبمساعدة الاستعمار . ولكن الواقع أن ثورة الأمير عبد الكريم الخطابي كانت ثورة تحررية ، وتمتز بعروبتها ، وتمتاز بالاسلام الذى حفظ العروبة ، بما أنزله الله على العرب من القرآن .

وامتاز الأمير بحبه للتنظيم ، وبتفنه فى ذلك ، وقام بهذه العملية فى صمت ، ولكن مع تفكير ، وحسن تقدير للمواقف وللرجال . وتدل العمليات الأولى التى قام بها الأمير عبد الكريم الخطابي ضد الاسبانيين عند اجربين ، وحول أنوال على أنه كان يعرف كيف يفيد من طبيعة الأرض ، ومن الطرق ، والجبال، ومنايع المياه ، وكيف يفيد من كمية نيران قليلة ، وتفتح بقطاعات معينة ، لكى ينتصر ألف من المجاهدين على أربع وعشرين ألفا من قوات الاستعمار ، رغم تفوق الأعداء فى العدد والتموين وكل مستلزمات الحرب . وأثبت عبد الكريم الخطابي فى هذه العمليات الأولى أنه يعرف كيف يستفيد من طلقة واحدة فى الاستيلاء على مدفع هاوتزر وأسر طاقمه . ولقد قام الأمير عبد الكريم الخطابي بكل ذلك من لاشيء ، أو بقليل من الأسلحة ، ولكن بفكر ثاقب وبحسن تدبير ، وبقوة ايمان توصله مع التصميم الى النصر . وعرف الأمير عبد الكريم الخطابي كيف يفيد من ذلك الاقليم

الفقير من أسلحة الأعداء ومهماتهم . وعرف كذلك كيف يحصل على ما يلزمه في ميدان المعركة ، ومن الأعداء . وسمح له ذلك بتسليح ذلك الجيش الذي أصبح دعامة جمهورية الريف ، والذي أقلق مضاجع فرنسا واسبانيا مدة ست سنوات . وإذا كانت معاركه الأولى قد شهدت هجوم رجال الريف بأسلحة صغيرة وبسيطة ، فإن المعارك التالية ستشهد اشتباكات دامية يستخدم فيها رجال الريف قطع المدفعية وأجهزة التليفون ، والنزول الى معارك كبيرة وعلى خطوط طويلة ، وبطريقة منسقة ، وفي تكامل بين الوحدات المحاربة في أرض المعركة . لقد تغير وجه الريف ، وحصل (أبناءه) ، وبقيادة الأمير عبد الكريم الخطابي ، ومنذ ذلك الوقت ، على ذلك اللقب الذي عرفوا به ، وهو أنهم أشهر جنود للهجوم في العالم . وتمنى هتلر فيما بعد أن يكون رجاله من أبناء الريف ، حتى يتمكن من السيطرة على العالم . حصل أبناء الريف على هذه السمعة في معاركهم ، وبقيادة الأمير عبد الكريم الخطابي .

وشهدت المعارك التالية ، التي وقعت الى شمال فاس استخدام السلاح الثالث ، أو الحرب النفسية والمعنوية ، وكان سلاحا من الدرجة الأولى ، ضد قوات فرنسا في المنطقة . وكان الأمير عبد الكريم الخطابي من بين أوائل القواد الذين يستخدمون هذا السلاح فيحسنون استخدامه ، وهو السلاح الذي أصبح له اليوم مكانا أساسيا في كل الحروب . وسارت هذه المعارك على أساس تنظيم حديث ، كان يشبه تشكيل القوات المحاربة في خطوط المارن سنة ١٩١٦ ، إذ أنه كان يشتمل على عدة خطوط ، ويشتمل كل خط على عدد من المواقع المحصنة بالدشم ، وعدد من الخنادق . وأثبت الأمير عبد الكريم الخطابي بذلك أنه يتفوق على الرجال العسكريين ، وعلى رجال أركان الحرب الذين تخرجوا من الاكاديميات العسكرية ، ومن سان سير أو من

فرسان . ولا شك أن شخصية الأمير عبد الكريم الخطابي قد تجاوزت وتكاملت مع شخصية رجاله المغاوير ، لكي تصل الى محققات عجز جنود الاستعمار والمرتقة عن الوصول اليها ، رغم تسليحهم والانفاق عليهم ، والعناية بهم .

وأمام انتصار الأمير عبد الكريم الخطابي ادعت الدول الاستعمارية أنه كان يحظى بتأييد روسيا ، ولم يكن هناك أى تعاون بين الأمير وبين روسيا . أما اذا كان الحزب الشيوعي الفرنسى أو العناصر الاشتراكية في فرنسا تؤيد الأمير وثورة الريف ، فإن التكتيك الحربى الفرنسى في ذلك الوقت هو الذى كان مسئولا عنه هذا التأييد ؛ ولم يكن ذلك يدل أبدا على اتجاهات يسارية عند الأمير . وإذا كان المؤتمر الشيوعى الثالث إقد استند الى انتصارات الأمير عبد الكريم الخطابي لكي يعلن تأييده لجميع حركات التحرر التى تقع في المستعمرات ضد الدول الاستعمارية ، فإن ذلك كان يعنى كذلك محاولة هذا المؤتمر تدعيم قواه في العالم ، وعلى أساس اضعاف القوى والدول الاستعمارية التى عملت على كبت واستغلال الشعوب الحرة . والمهم هو أن هذه الادعاءات لم تكن تستند الى حقيقة واقعية ، ولم تؤد الى تزويد رجال الريف بالأسلحة أو الذخائر ، وهم في حربهم ضد الاسبانين والفرنسيين . أما تلك المظاهرات التى نظمها وأيدها الحزب الشيوعى الفرنسى في باريس ، وتلك النشرات التى قام بتوزيعها لوقف الحرب ، فإن الأمير عبد الكريم لم يكن له أى ضلع فيها ، بل كانت من أجل فرنسا ، وسمعة فرنسا ، ودولة الحرية وحقوق الانسان ، قبل أن تكون من أجل الريف ، ورجال الريف .

وكان الأمير يعرف الحق ، ويعرف كيف يقوم بعمل تقدير للموقف . وبطريقة بعيدة كل البعد عن التهور ، أو التطرف

أو التعصب . وكان يعرف هدفه ، وهو ضرورة الوصول الى اعتراف الدول الاستعمارية المستعمرة بحقوق أبناء البلاد المشروعة ، وحريتهم في تقرير مصيرهم . وخاصة بعد أن أعلنت عصبة الأمم هذه المبادئ ، واتخذتها شعارا لها . ولذلك فان معركته كانت معركة الحق ، في نفس الوقت الذي كانت فيه معركة الحرية . وكان الأمير في نفس الوقت يقيس قواته بقوات الأعداء المواجهة له ، ولا يطلب الا ما كان من حقه أن يطلبه . ومع استمرار الوقت وتكتل الدول الاستعمارية ، وزيادة معداتها ورجالها في الميدان أمامه ، قام الأمير « بتقدير للموقف » وشعر بصعوبة الاستمرار في معركة حربية بين طرفين بعيدين كل البعد عن التوازن . فكانت شجاعة منه أن يقرر وقف العمليات ، ويطلب الصلح .

ولقد ابتعد الأمير عبد الكريم الخطابي بهذه العملية كل الابتعاد عن التهور ، وعن التعصب وعن التطرف ، وخاصة في الوقت الذي شعر فيه بأن العملية قد أصبحت عملية انتحارية ، وأنها - اذا استمرت - لن تؤدي الا الى الخراب والدمار ، وإلى زيادة تفرس الاستعماريين في البلاد ، وبشكل منقطع النظير . وكان صعبا عليه أن يسلم سيفه ، ويقبل النفي ، ولكنه قبل ذلك حتى يسمح للأجيال التالية بحق الحياة ، واستمرار الكفاح ، ومن أجل نفس المعركة . وكان أبيا ، لا يعرف الضيم ، ولا يرضى بالضيم لرجاله ، أو حتى لأعدائه ، وكان في ذلك يعرف الحق ، ويمتاز بالايمان ، وبعمق الايمان .

ودلت عملية فرار الأمير من السفينة التي كانت تثقله في عودته الى فرنسا سنة ١٩٤٧ على أنه كان رجل خطط ، ويعمل في صمت ولا يقبل أن تتخذ فرنسا وسيلة لارهاب غيره من الرجال ، الذين كانوا يعملون من أجل المغرب في ذلك الوقت ؛ اذ أنه كان أكثر من

مجرد بطاقة ، وصمم ألا تكون هذه البطاقة في أيدي فرنسا ، وخاصة اذا كانت هذه الدولة ترغب في أن تلعب بها ، وتلعب بها ضد سلطان البلاد .

كما أن فترة اقامته في القاهرة دلت على أنه لا يسمى لزعامة ، ولا يبحث عن قيادة ، بل هو رجل من الرجال يؤيد الجميع ، ويعضدهم ، ما داموا يسرون على طريق الحق ، وطريق الحرية .

وكانت تصريحاته العديدة التي تصدر من القاهرة تعتبر حربا معلنة على الاستعمار الأجنبي في شمال افريقية ، وكانت في نفس الوقت تأييدا واضحا لجميع الرجال الذين وقفوا في وجه الاستعمار الأجنبي هناك . وأفاد بذلك الحركة التحررية الوطنية في شمال القارة الافريقية أكبر فائدة ، ودون أن يترك للمستعمرين فرصة للوقعة بينه وبين رجال التحرير في الفترة التالية للحرب العالية الثانية .

وحتى توجيهاته وآراؤه التي كان يقدمها لرجال التحرير ، ولجاهدي المغرب العربي ، كان يقدمها كأب لأبنائه ، وأخ أكبر لآخوانه الذين نزلوا من بعده الى الميدان ، ودون أن يفرض نفسه أو رأيه ، ومن أجل الحق ، ومن أجل النصر .

وكانت تصريحاته قصيرة وعميقة وواضحة ، ولا تقبل التفسير أو التأويل ؛ اذ أنه كان راديكاليا في موقفه ، ولا يعرف غير الحرية والوحدة أساسا ووسيلة وهدفا ، حتى وان كره الظالمون .

وكان الأمير قد أقسم الا يعود الى بلاده الا بعد أن يخرج منها آخر جندي من جنود الاستعمار ، وحافظ الأمير على عهده . واذا كان محمد الخامس قد طالب اليه أن يعود الى بلاده سنة ١٩٥٩ وعلى أساس أن المغرب قد أصبح دولة حرة مستقلة تامة السيادة، فان دبلوماسية الأمير قد أملت عليه أن يحتج بتقديم سنه ، وثقل حركته ، واحتياجه الى الرعاية الطبية ، حتى يؤجل عودته الى

بلاده الحبيبة . وكان يعرف أن هناك نفوذا أجنبيا لا يزال قائما في بلاده ، وعلى أخوانه المغاربة . وكان الأمير كان قد أصبح موزعا في ذلك الوقت بين أرض الكنانة التي أضافته وساندته وأيدته ، وبين بلاده التي ولد فيها ، وشب وترعرع ، وقاد عمليات الجهاد على أرضها .

وكان الأمير قد شعر بأن القاهرة - القاهرة المعز لدين الله - قد أصبحت هي مركز الثقل ، ومركز التحرر بالنسبة للعالم العربي والاسلامي ؛ وإذا كان قد ولد في المغرب فانه كان يرغب في أن يدفن في القاهرة . وكتب الله له ما أراد .

خاتمة

كان الأمير عبد الكريم الخطابي بطلا من أبطال التحرير سجل له التاريخ اسمه في سجل الخالدين ؛ لكن علينا ونحن نكتب عنه الآن أن نعترف بأنه قد سبق عصره ، وعمل من أجل المبادئ قبل غيره من الرجال . وإذا كنا الآن نفخر بعملنا تحت شعار الحرية والاشتراكية والوحدة ، فمما لا شك فيه أن الأمير عبد الكريم الخطابي حث على هذه الشعارات وعمل على تطبيقها من قبلنا بجيل ، ومن قبلنا بأربعين عاما .

أما عن الحرية فان الأمير كان رجلا من رجالها ، وعمل ، حين وجدها مهددة ، من أجلها ، ومن أجل تحرير رجال ولدوا أحرارا . ولا شك أن عمليات كفاحه ضد القوات الاسبانية والقوات الفرنسية كانت تدل على أنه يمارس الحرية ، ويعمل على تحطيم القوى المعادية لها ، وبطريقة عملية ، وبقوة التغيير الجذرية ، وهو يحمل السلاح في يديه .

وأما عن الاشتراكية فانه قد طبقها فعلا ، حتى وان كان لم يتخذها لفظا في نصه ووضوحه ، وخاصة في ذلك العصر الذي عملت فيه القوى الرجعية والاستعمارية على تشويه معنى الاشتراكية بربطها بالحركة اللادينية من ناحية وربطها بالإباحية من ناحية أخرى . كانت اشتراكية رجال الريف تتمثل في ذلك

النوع من العدالة ، الذى يطبق فى الانتاج ، والذى يطبق فى الجهاد ، والذى يشارك فيه العاملون والمتصرون ، نتيجة عملهم ، ونتيجة انتصاراتهم . وكانت هذه العدالة بين الناس ، فى الحقوق والواجبات هى الممارسة الفعلية للروح الاشتراكية ، والتى تتمشى مع الاسلام ، ودون الاخلال بقيمة هذه الحركة التحررية العادلة ، أو الربط بينها وبين الحركات الاشتراكية المادية التى ظهرت فى هذه الفترة .

وأما من حيث الوحدة فان حركة الأمير عبد الكريم الخطابى قد سارت فيها على أساس ممارسة السلطة الفعلية فى منطقة معينة يمكن اعتبارها مركز سلطة ، ومركز اشعاع ، بالنسبة للمناطق المحيطة بها . واذا كانت عمليات التحرير قد بدأت مع الأمير عبد الكريم الخطابى فى أراضى بنوورياغل فانها قد انتشرت واتسعت شرقا صوب مليلة ، وغربا صوب شفشاون ومناطق الجبال . ولم يكن ذلك الا تمهيدا لوصول منطقة الريف ببقية مناطق المغرب . ولقد ظهر ذلك واضحا مع عملية هجوم أبناء الريف جنوبا صوب تازا واتصالهم برجال الأطلس المتوسط لى يزدوا من منطقة ثورتهم ، ومن حدود دولتهم ، ويعيدوا وحدة قبائل وحد الله بين أبنائها فى اللغة والدين ، والعادات والتقاليد ، وفى طريقة الانتاج ، وطريقة ممارسة الحياة ، وحتى فى الأهداف .

واذا كان الزمن ، أو الظروف قد وقفت فى وجه حركة الأمير عبد الكريم الخطابى ، وفى وجه ثورته ، وأجبرته فى سنة ١٩٢٦ على وقف العمليات ، الا أن نفس الزمن ، ونفس الظروف ، قد عملت على انبات هذه الآراء والاتجاهات فى مناطق أخرى من العالم

العربى والاسلامى . وهكذا شعر الأمير عبد الكريم الخطابى فى القاهرة بعد سنة ١٩٤٧ وخاصة بعد سنة ١٩٥٢ ثم بوضوح سنة ١٩٥٤ أنه فى بلاده ، وبين اخوانه ، ويحيط به نفس الرجال ؛ وشعر أنهم يعملون من أجل نفس المبادئ التى حارب من أجلها منذ أربعين عاما .

ولا شك أن رجالات العرب يفخرون باسم الأمير عبد الكريم الخطابى بينهم ، سواء أكان ذلك فى ميدان القيادة ، أم ميدان التنظيم ، أم ميدان التكتيك ، أم ميدان تقدير المواقف ؛ ويفخرون أنهم اخوانه وأنهم الجيل التالى الذى يمكنه أن يحقق معارك وشعارات هذا القائد العربى الملهم .

دكتور
جلال يحيى

محتويات الكتاب

صفحة	
٣	مقدمة
٧	الفصل الأول : بلاد الريف معقل الأبطال .
١٦	الفصل الثاني : الريف والأطماع الاستعمارية .
٢٦	الفصل الثالث : أسرة الأمير وتكوينه الأول .
٣٤	الفصل الرابع : زحف الاسبانيين . . .
٤٢	الفصل الخامس : معركة أنوال . . .
٤٨	الفصل السادس : مواصلة عمليات التحرير .
٥٩	الفصل السابع : تضارب المصالح مع فرنسا .
٦٨	الفصل الثامن : الزحف صوب الجنوب .
٧٧	الفصل التاسع : التعاون الفرنسي الاسباني .
٨٤	الفصل العاشر : هجوم الاستعمار . . .
٩٢	الفصل الحادى عشر : زيادة الضغط الاقتصادى .
٩٨	الفصل الثانى عشر : انهالك قوى المجاهدين . .
١٠٤	الفصل الثالث عشر : المفاوضات والتسليم . .
١١٢	الفصل الرابع عشر : الأمير فى المنفى . . .
١١٧	الفصل الخامس عشر : الأمير فى القاهرة . . .
١٢٥	الفصل السادس عشر : الأمير وجبهات التحرير . .
١٣٧	الفصل السابع عشر : بين السياسة والجهاد . .
١٤٦	الفصل الثامن عشر : صفاته وأخلاقه . . .
١٥٧	خاتمة

دار الكاتب العربى للطباعة والنشر

فرع مصر - ١٩٦٨

صدر من سلسلة أعلام العرب

اسم الكتاب	المؤلف
١ - محمد عبده	عباس العقاد
٢ - المعتمد بن عباد	على أدهم
٣ - جابر بن حيان	د . زكي نجيب محمود
٤ - عبد الرحمن بن خلدون	د . على عبد الواحد وافي
٥ - ابن تيمية	د . محمد يوسف موسى
٦ - معاوية	ابراهيم الابيارى
٧ - سيد دوويز	د . محمود أحمد الحفنى
٨ - عبد القاهر الجرجاني	د . أحمد بدوى
٩ - عبد الله النديم	د . على الحديدى
١٠ - عبد الملك بن مروان	د . ضياء الدين الرئيس
١١ - مالك	أمين الخولى
١٢ - القلقشندي	د . عبد اللطيف حمزه
١٣ - الطبرى	د . أحمد محمد الحوفى
١٤ - الظاهر بيبرس	د . سعيد عبد الفتاح عاشور
١٥ - ابن الفارض	د . محمد مصطفى حلمى
١٦ - المختار الثقفى	د . على حسنى الخربوطلى
١٧ - الوليد بن عبد الملك	د . سيدة اسماعيل الكاشف
١٨ - الأصمعى	د . أحمد كمال زكى
١٩ - زكريا أحمد	صبرى أبو المجد
٢٠ - قاسم أمين	د . ماهر حسن فهمى
٢١ - شكيب أرسلان	أحمد الشرباصى
٢٢ - ابن قتيبة	د . عبد الحميد سند الجندى
٢٣ - أبو هريرة	محمد عجاج الخطيب

اسم الكتاب

المؤلف

٢٤ - عبد العزيز البشرى	د . جمال الدين الرمادى
٢٥ - الخنساء	محمد جابر الحينى
٢٦ - الكندى	د . أحمد فؤاد الاهوانى
٢٧ - الصاحب بن عباد	د . بدوى طبانه
٢٨ - الناصر بن قلاوون	د . محمد عبد العزيز مرزوق
٢٩ - أحمد زكى	أنور الجندى
٣٠ - حسان بن ثابت	د . سيد حنفى حسنين
٣١ - المثنى بن حارثة الشيبانى	عقيد : محمد فرج
٣٢ - مظفر الدين كوكبورى	عبد القادر أحمد
٣٣ - رشيد رضا	د . ابراهيم أحمد المدوى
٣٤ - اسحاق الموصلى	د . محمود أحمد الحفنى
٣٥ - أبو حيان التوحيدى	د . زكريا ابراهيم
٣٦ - ابن المعتز الباسى	د . أحمد كمال زكى
٣٧ - الزهاوى	د . ماهر حسن فهمى
٣٨ - أبو العلاء المعرى	د . عائشة عبد الرحمن
٣٩ - أحمد لطفى السيد	د . حسين فوزى النجار
٤٠ - الجوينى امام الحرمين	د . فوقيه حسين
٤١ - صلاح الدين الأيوبى	د . سعيد عبد الفتاح عاشور
٤٢ - عبد الله فكرى	محمد عبد الفنى حسن
٤٣ - عبد الله بن الزبير	د . على حسنى الخربوطلى
٤٤ - عبد العزيز جاويز	أنور الجندى
٤٥ - ابن رشيق القيروانى	عبد الرؤوف مخلوف
٤٦ - محمد بن عبد الملك الزيات	محمود خالد الهجرى
٤٧ - حنفى ناصف	محمود فنىم
٤٨ - أحمد بن طولون	د . سيدة اسماعيل كاشف
٤٩ - محمود حمدي الفلكى	أحمد سعيد الدمرداش
٥٠ - أحمد فارس الشدياق	محمد عبد الفنى حسن
٥١ - المهدي العباسى	د . على حسنى الخربوطلى
٥٢ - الأشرف قانصوه الفورى	د . محمود رزق سليم

اسم الكتاب	المؤلف
٥٣ - رفاعة الطهطاوى	د . حسين فوزى النجار
٥٤ - زرياب	د . محمود أحمد الحفنى
٥٥ - الكندى « المؤرخ »	د . حسن أحمد محمود
٥٦ - ابن حزم الأندلسى	د . زكريا ابراهيم
٥٧ - ابن النفيس	د . بول غليونجى
٥٨ - السيد أحمد البدوى	د . سعيد عبد الفتاح عاشور
٥٩ - المأمون	د . محمد مصطفى هدارة
٦٠ - المقبرى	محمد عبد الفتى حسن
٦١ - جمال الدين الأفغانى	عبد الرحمن الرافعى
٦٢ - الجاحظ	د . أحمد كمال زكى
٦٣ - ابن ماجه	د . أنور عبد العظيم
٦٤ - محمد توفيق البكرى	د . ماهر حسن فهمى
٦٥ - محمود سامى البارودى	د . على محمد الحديدى
٦٦ - ابن زيدون	على عبد العظيم
٦٧ - عمر مكرم	د . عبد العزيز محمد الشناوى
٦٨ - موسى بن نصير	د . ابراهيم أحمد المدوى
٦٩ - أبو الحسن الشاذلى	د . عبد الحليم محمود
٧٠ - عبد العزيز بن مروان	د . سيدة اسماعيل كاشف
٧١ - على مبارك	د . حسين فوزى النجار
٧٢ - أبو الحسن الشاذلى	د . عبد الحليم محمود
٧٣ - العزيز بالله الفاطمى	د . على حسنى الخربوطلى
٧٤ - أبو بكر الطرطوشى	د . جمال الدين الشيبان
٧٥ - يونس بن حبيب	د . حسين نصار
٧٦ - صقر قريش	عبادة كحيله
٧٧ - البيرونى	د . محمد جمال الفندى
٧٨ - عبد الكريم الخطابى	د . د . امام ابراهيم أحمد
	د . جلال يحيى